جمهورية العراق

وزارة التربية

المديرية العامة للمناهج

الأَدب والنُّصُوص

للصف الخامس العلمي

تأليف

الدكتور عبد اللطيف الطائي

الدكتور عبد الله عبد الرحيم السوداني

الدكتورة عهود عبد الواحد العكيلي

علوان عبد الحسن السلمان

داود سلمان فرج

الطبعة الحادية عشرة

المديرية العامة للمناهج
قسم التحضير الطباعي

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

المشرف العلمي على الطبع

د.ماجدة هاتو هاشم

المشرف الفني على الطبع

صلاح سعد محسن

مصمم الكتاب

أحمد حافظ كطيش

الموقع والصفحة الرسمية للمديرية العامة للمناهج

www.manahj.edu.iq
manahjb@yahoo.com
Info@manahj.edu.iq

manahjb
manahj

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

هذا كتاب يتناول بالدراسة والتحليل تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي في المشرق والأدب العربي في الأندلس ، إذ انفتحت الحضارة العربية الإسلامية على حضارات الأمم التي سبقتها، الهندية و الفارسية واليونانية والرومانية، فتأثرت بها وأكملت مسيرتها وواصلتها مضيفة إليها، وكانت النتيجة أن أَثْرّتِ الحضارة الإنسانية وأسهمت في تقدُمها، وتأثر تبعاً لذلك أدبنا العربي شعره ونثره، فازدهرت فنونه وأفكاره وتطورت أساليبه، وستلمس ذلك جلياً في النتاج الأدبي لشعراء العصر وكتابه، بعد أن عرّفناهم تعريفاً غير مخلّ وعرضنا لنماذج من شعرهم ونثرهم، كما تناولنا بالدراسة تاريخ الأدب العربي في الأندلس لما له من خصوصية ميزته من أدب المشرق ولما فيه من عبقرية وخصوصية وإبداع غذتها تلك البقاع وأثرت في تكوينها.

وفقنا الله إلى سبيل الرشاد وهدانا لخدمة أوطاننا وأبنائنا وتراثنا الخالد

إنه ولي التوفيق.

المؤلفون

مقدمة عن العصر العباسي

يُعدُّ العصر العباسي من أطول وأَغزر العصور الأدبية التي رافقت نمو الأدب العربي وتطوره، وتعنى دراسة هذا العصرالتَّعَرُّفَ على أحوال الأدب في أكثر من خمسة قرون من حكم الأسرة العربية العباسية تبدأ في سنة (١٣٢ هـ) وهو تاريخ سقوط الدولة الأموية وانتقال الحكم إلى العباسيين، وتنتهي في سنة (٦٥٦ هـ) تاريخ انتهاء الحكم العباسي واحتلال المغول لبغداد.

لقد عالج مؤرخو الأدب دراسة هذا العصر في ظل العصور السياسية وتقسيماتها على وفق ما اتفق عليه أكثر المؤرخين، وإنَّ أَغلبَ الدراسات تناولته في عصرين هما:

العصر العباسي الأول من سنة (١٣٢ هـ) إلى سنة (٣٣٤ هـ) في بداية حكم البويهيين ؛ والعصر العباسي الثاني من سنة (٣٣٤ هـ) إلى سنة (٦٥٦ هـ) وهي سنة الغزو المغولي لبغداد، ومع أهمية التقسيم الزمني في دراسة الأدب لابُدَّ أَن نشير إلى ضرورة تأكيد تطور الفنون الأدبية في العصر كلِّه لأنه الجانب الأهمّ والأجدى والأنفع.

ويمثل العصرُ العباسيّ بجملتِهِ أوج الازدهار الحضاريّ الذي أنتجَ حركةً فكريةً رائعةً امتازت بتدوين العلوم العربية الإسلامية وبالعناية بعلوم مترابطةٍ تُكوِّنُ هيكلاً فكرياً عربيّاً إسلاميّاً في أصولِهِ ورجالِهِ. وقد انتشرتْ المدارسُ في هذه المرحلة الزّمنيةوظهرتْ دورُ الكتبِ وأسواق الوراقين، كدار الحكمة، والمكتبات الشخصية والعامة وقد هيّأ القرنُ الثالثُ الهجري لولادة مسيرة الازدهار الحضاريّ في القرن الذي تلاهُ.

وصارت بغداد حاضرةً لعلوم العرب والمسلمين بما امتلكتهُ من إرث حضاري امتدَّ من قبل الإسلام ومن حضارةِ وادي الرافدين وممّا تركهُ الإسلامُ من أثر فكري وحضاري يتناسب وما في القرآن الكريم من نهضةٍ علميةٍ وسياسيةٍ وفلسفيةٍ، على أنّ هذا الإرث العظيم قد دخلتهُ روافدُ الثقافةِ الأجنبيةِ التي وصلتْ بغداد نتيجة الامتزاج الحضاري بما عند الأمم الأخرى عن طريق النقل والترجمةِ .

وقد بدأت الحركة الجادة لتدوين مصادرِ الثقافةِ العربيةِ الأصيلةِ في القرنين الثاني والثالث الهجريين ونشطت حركة التأليف والترجمة والنقل وأَظهرت اللغة العربية عبقريتها الفذة في القدرة على استيعاب مصادر الثقافة والعلوم المبتكرة أو المنقولة عن حضارات الأمم الاخرى، كما أَظهرت مرونة رائعة في التحضر والسلوك مع الأطوار المدنية التي طبعت العصر ورسمت حياته الجديدة.

وفي العصر العباسيّ الثاني استكملتْ الحضارةُ العربيةُ نضجَها وتفوقَها وبلغتْ بعطائها وعمقها وأصالتها مركزَ الريادة الأول في مجال الحضارةِ الإنسانيةِ في حينهِ.عن هذه المواقع الثقافيةِ المتقدمةِ صارَ الكُتّابُ والشعراءُ العباسيون يصدرون بنتاجاتهم ما آل إليه الواقع الحضاري الجديد من عمق الفكر وسمو المنطق وتعدد مصادِر المعرفة، وتطور أساليب البلاغة والأداء اللغوي، والتجديد في الأوزان والقوافي .

إنّ مظاهرَ التجديد في الأدب العباسيّ لم تقف عند حدود تخطي الأشكال القديمة والثورة عليها بل تجاوزت ذلك المضمون ، وبذلك قُدِّرَ للشعراء والكُتَّاب أَنْ يُصَّوروا حياتهم الجديدة أصدق تصوير، وقد انعكستْ في آثارهم البيئةُ الجديدةُ في أسسها الطبيعية والاجتماعية والسياسية والفكرية، ومثلما أجادوا في مجال التعبير عن واقعهم الجديد أجادوا أيضاً في التعبير عن ذواتهم بأدب وجداني رائع.

وقد يكون من المناسب ان نشير هنا إلى أَنّ الأديبَ العربي في العصر العباسي لم يكتفِ بالتعبير عن جوانب التَّرفِ ووصف مظاهر الحياة أو التَّغني بالخواطر الذاتية المقرونة باللهو والدَّعة فقط، بل أسهم إِساهماً ملموساً في تحديد مواقفه إزاء التحديات. وقد تَطورتْ هذه المواقفُ في العصر العبْاسي الثاني فظهر(أدب الرفض) الذي وقف إلى جانب طبقة العامة الواسعة، ومعاناتها أمام طبقة الحكام، وأتباعهم وهم قلةٌ ؛ ملكوا كُلَّ شيء وحرموا الشعبَ من أي شيء، ويبدو أنّ الضعفَ السياسي الذي بدأ منذ مطلعِ القرن الرابع الهجري ورافق قيام الدولتين البويهية والسلجوقية كان وراء هذا التحول في مناهج بعضِ الشعراء والكُتّاب،واقترنَ ذلكَ بإقصاءِ العرب عن مواقعِ القيادةِ الحقيقيةِ في الدولة العربية وتفشي الفساد والأمراض وتعدد الكوارث وتفككُ الدولة العربية وقيامُ دويلات الأقاليم، من هنا تتضح لنا الأسبابُ الحقيقيةُ وراءَ ظهور أدبِ الرفض في مسار اتجاهات الأغراض الأدبيةِ في العصر العبّاسي الثاني، وشيوع (أدبُ السُّخف والسّخرية) وإظهار اللامبالاة مما يدور في المجتمع من مظالم ومن سيادة الجهلة وتوليهم أمور الناس.

كما نرى في شعر الكثير من الشعراءكالحسين بن الحجاج والعكوك، ولم يخل من

هذه الظاهرة حتى الشعراء الجادّون، فهذا أبو العلاء المَعَريّ يقول:

ولما رأيتُ الجهلَ في الناسِ فاشياً   تجاهلتُ حتّى ظُنَّ أنّي جاهِلُ

وعلى العُموم نُسجِّلُ بالفخرِ والاعتزاز عطاءَ الأدب العباسي موضوعياً وفنياً بوصفهِ أعظمَ نتاجٍ في التُراث العربي، وما زال شعراؤه وكُتّابُه أساتذة للأجيال يتتلمذون لهم ويصقلون نتاجهم على أصولهم المتينة، ويكفي أنَ نُشيرَ إلى أن العصر العباسي كان الرحِمَ الخصب الذي أَنجْبَ كثيراً من الشُّعراء.

أسئلة للمناقشة

١ـ ماأهمية العصر العباسي في الأدب العربي، وماذا يمثل؟

٢ـ بمَ صارت بغداد حاضرة العرب والمسلمين ؟

٣ـ متى بدأت حركة التدوين الجادة ؟

٤ـ متى نضجت حضارتنا العربية الإسلامية ؟

٥ـ مامظاهر التجديد في الأدب العباسي ؟

٦ـ عمَّ عبَّرَ الأديب العباسي ؟

٧ـ لماذا ظهر (أدب الرفض) و (أدب السخف) في هذا العصر ؟

القسم الأول ـ العصر العباسي

تضافرت بعدَ نشوءِ الدولةِ العباسّيةِ في سنة (١٣٢ هـ) عوامل مختلفةٌ كان لها أثَرٌ كثيرٌ في تكوين المجتمعِ العباسي وفي تلوين نثره وشعره، وقد تلون المجتمعُ بأَلوانٍ شتى في العاداتِ والتقاليدِ والمفاهيمِ الاجتماعيةِ التي كانتْ بعيدةً عما ألفَهُ العربُ في العصور السابقة لهذا العصر، عن طريق الاختلاط والتزاوج.

إذ امتزجت الثقافةُ العربيةُ بالثقافات الأخرى امتزاجاً واسعاً وفاعلاً عن طريق التَّرجمةِ التي نَشطت وأَقبل عليها النَّاس إقبالاً واسعاً ، وكان أثرُ هذا الامتزاج الفكري والثقافي واضحاً في شيوع الأفكار الفلسفية والمصطلحات المنطقية التي لم تكن شائعةً قبل هذا العصر، وكثرتْ العنايةُ بالعمران والتوسع فيه.

وكان لكلِّ هذه العوامل أثرُها الواضحُ في الأدب: نثرِه وشعرِه، فالنثرُ الفني في هذا العصر الذي أربى على خمسةِ قرون، أي من سنة (١٣٢ هـ) إلى سنة (٦٥٦ هـ) قد مرَّ بمراحل مختلفة تميزتْ كلُّ مرحلةٍ منه بخصائص فنيةٍ ثابتةٍ خاصةٍ، ومَثَّل كلَّ مرحلة من هذه المراحل طائفةٌ من الكُتّاب، فضمتْ المرحلةُ الأولى ابن المقفّع والثانيةُ الجاحظ، والثالثةُ ابنَ العميد، والرابعةُ القاضي الفاضل.

الخصائص الفنية للنثر والشعر في هذا العصر

١ـ الخصائص الفنية للنثر :

تنويعُ العبارة وسهولتها، وتقطيعُ الفقرة إلى جمل كثيرة مسجوعة أو مرسلة، والإطناب في الألفاظ والجمل، والإستطرادُ ومزجُ الجَّدِ بالهزل، وتحليلُ المعنى واستقصاؤه، وتحكيمُ العقل والمنطق، والاعتراضُ بالجمل الدعائية، والإكثارُ من المجاز والتشبيه، والكنايةُ والمحسناتُ البديعية، كالجِناس والطباق والتوريةِ والاستشهادُ بالنظم في غضون النثر والاقتباس من آي القرآن الكريم، وتضمين الحديث النبوي الشريف.

٢ـ الخصائص الفنية للشعر :

أما الشعرُ وعلى الرغم من الثورة والتجديد التي شهدها فقد بقي كثير من شعراء العصرـ على الرغم من العوامل الجديدة المؤثرة في مجرى حياتهم وتفكيرهم وشعرهمـ يلتفتونَ إلى الشعر القديم ويتأثرون به مُستمدين منه الأسسَ التي يقيمون عليها بناء قصيدتهم، فهم لم يشاؤوا أَن يتحرروا من قيود الوزن والقافية وعمود الشعر، كما لم يتهيأ لهم أَن يتحللوا من كثير من الأغراض والمعاني التي طرقها الأقدمون، فكانوا يلتزمون وزناً واحداً وقافية واحدة في القصيدة الواحدة، ويفتتحون القصائد بالنسيب أو ذكر الأطلال، كما كانوا يعالجون (يعرضون) في أثنائها أغراضاً شعريةً شتى وهم في كلِّ هذا يحذون حذو القدماء من الشعراء.

ولكن مع كلِّ هذا الإقتداء بالقدماء فإنّ هناك شعراءَ لم يقفوا عند الحدود التي رسمها لهم الأقدمون، بل حاولوا تطوير الفنون التي ورثوها كما جهدوا في ابتداع فنون أخرى لم يكن لها أصلٌ قبلَ هذا العصر.

لقد طرأت على الشعر أُمورٌ كثيرةٌ تناولتْ جوانبَ مختلفةً منه، يمكن إجمالها فيما يأتي:

ما حدث في فنونه وأغراضه:

١ ـ استهلال بعض قصائدهم بوصف القصور أو السفن أو الربيع أو الشراب بدلاً من النسيب او ذكر الأطلال فكان هذا التغير في استهلال الموضوعات جاء نتيجة للبيئة الجديدة التي عاشوا فيها .

٢ ـ ازدياد وصف الرياض والقصور وأَحوال المعيشة، ومصايد الوحوش والطَّير والسَّمك وغير ذلك.

٣ ـ ازدياد الدعوة للوعظ، والزُّهد في الدُّنيا، والحكمة وضرب المثل، وتأديب النفس ونظم القصص والحكايات شعراً.

٤ ـ ظُهورُ نوع من الرثاء يهتم برثاء المدنِ والبلدان، وما يَهمُّ الانسان من طيروحيوانِ... وغيرها.

٥ ـ ظهوُر الشعر الهزلي والتهكمي(السُّخرية) .

٦ـ الإكثار من وصف المعارك التي كانت تقع بين المسلمين وغيرهم من الروم والصليبيين.

٧ ـ الإكثار من التراسل بالشعر والتَّهاني وهو ما يسمى (الإخوانيات) ولاسيما في مواسم الأعياد أو الزواج أو الولادة أو غيرها.

٨- ضبط القواعد والعلوم بنظمها شعراً، وهو ما يسمى الشعر التعليمي، لحفظ قواعد العلوم اللغوية والفقهية والحكمة والقصص والأمثال لتسهيل حفظها، فقد نظموا قصص كَليلة ودِمنة وغيرها.

ما طرأ على لفظه وأسلوبه:

١- هَجْرُ الألفاظ الغريبة وقلّتُها في النصوص الأدبّيةِ.

٢- التَمَلُحْ بالكلمات غير العربية تظرّفاً.

٣- رقَّة الأسلوب وعذوبة اللفظ مع بقاء الجزالة (القوة) ووضوح المعنى.

٤- الإكثار من استعمال فنون علوم البلاغة، ولاسيما فنون البديع.

ما حدث في معانيه وأخيلته:

١- ترتيب الأفكار ترتيباً متماسكاً ما دعا الى الإهتمام بوحدة القصيدة أكثرمن الاهتمام بوحدة البيت إذْ قلّ الإقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى مباين له، وهوما يُعْرَفُ (بوحدة القصيدة).

٢- المبالغة والغلوّ في الاغراض الشعرية، كالمديح، والهجاء،والفخر والرّثاء.

٣- إبداع الأخيلة الجميلة للتصوير، عن طريق التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل أو ما يُسمى بالصور ةِّ الفنيّةِ.

٤- استعمال طرق الحكمة والفلسفة، وعلم الكلام والمنطق ونحو ذلك في توسيع أساليب الإقناع.

ما طرأ على أوزانه وقوافيه:

١- الإكثار من النظم في البحور القصيرة والمجزوءة.

٢- استحداث أوزان جديدة كُتب لأكثرها الزوال.

٣- أمّا في مجال القافية فقد ابتدع الشعراء المُسمَّط والمزدَوَج والموشح.

دِعْبلُ الخزاعي

هو دِعْبلُ بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي. ودعبل لقب عُرِفَ به ويكنى أبا علي ولد في الكوفة سنة (١٤٨هـ) من أسرة عرف رجالها بالأدب والعلم فقد كان والده شاعراً، كذلك كان ابناه وأخوه وابن أخيه وعمه وابن عمه، وكان أخوه علي بن علي أديباً وقد صنف كتابا كبيراً عن الإمام الرضا (ع) ... واختلف في سنة وفاته، لكن على الأرجح ان الله توفاه سنة (٢٤٦ هـ) وله من العمر ثمان وتسعون سنةً .

ويُجْمع مؤرخو الأدب على أنّ لدعبل منزلةً رفيعةً في العلم والأدب والشعر فقد كان كاتباً ومؤرخاً ومحدّثاً وعالماً بالأدب واللغة وأيام العرب. حتّى إنّ ابن شرف القيرواني وصفه في رسائل الإنتقاد بأنه كان شاعر العلماء وعالم الشعراء وقد اشتغل برواية الحديث وكان من شيوخه الذين أخذ عنهم الإمام مالك بن أنس(١٧٩هـ) وسفيان الثوري (١٦١ هـ).

من آثاره

ديوان شعر وكتابان مفقودان هما :

كتاب (الواحة في مثالب العرب ومناقبها) وكتاب (طبقات الشعراء).

وقد اشتهر دعبل الخزاعي بقصيدته التائية في رثاء آل البيت الكرام (عليهم السلام) التي مطلعها:-

تجاوبن بالإرنانِ[1] والزفـراتِ	نوائحُ عُجمُ اللفظِ والنطقاتِ
يخبِّرن بالأنفـاس عن سِرِّ أنفسٍ	أسارى هوىً مـاضٍ وآخـرَ آتِ

١- الارنان : صوت البكاء.

عجم اللفظ : غير فصيحه.

ومنها :

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ	وَمَنزلُ وَحي مُقفرُ العَرَصَاتِ

كَتَبَ دِعْبلُ الخزاعي في كلَّ الأغراضِ الشعريةِ كالمدح والرثاء والفخر والهجاء والوصف .. ومن شعرهِ في الشيب والشباب :- (للدرس)

أينَ الشبابُ وأيةً سلكا	لا أينَ يُطلبُ ضَلَّ بَلْ هلكا
لاتعجبي يا سَلمُ من رجلٍ	ضَحِكَ المشيبُ براسه فبكى
قد كان يضحك في شبيبته	وأتى المشيبُ فقلما ضَحِكا
يا سلمُ مابالشيب منقصةٌ	لا سُوقةً يبقي ولامَلكا[1]
قصرَ الغوايةَ عن هوى قمرٍ	وجَدَ السبيلَ إليه مشتركا [2]
وَغدا بأخرى عزّ مطلبُها	صبّاً يطا من دونها الحسكا [3]
ياليت شعري كيف نوُمكما	ياصاحبيّ اذا دمي سُفِكا
لا تأخذا بظلامتي أحداً	قلبي وطرفي في دمي اشترك

اللغة :

١ـ السوقة : عامة الناس.

٢ـ الغواية: الضلال.

٣ـ عزّ : امتنع. صبّاً : عاشقاً متيما. يطا: يطأ: يدوس.

الحسك: نبات له شوك.

التعليق النقدي

يتساءل الشاعرُ عن الشباب الذي ولّى دونَ رجعةٍ بعد أَن غَطّى الشَّيبُ رأَسه، وكان لقاء المقارنة بين الشباب والمشيب... برقة اسلوب وسلاسةِ عبارةٍ واستعمال للمحسنات البديعيةِ كالطِباقِ والِجناس. والقصيدةُ تَكْشفُ عن مُبدعٍ يتفننُ في رسمِ الصورةِ والغوصِ في اعماقِ النفسِ الانسانيةِ ... باستعمال لغةٍ شفافةٍ مباشرةٍ قريبةٍ إلى ذهن المتلقي مع واقعيةٍ تَكْشِفُ عن قدرةٍ في رصد الواقع بجزئياتِه ... فالشَّيب لايستثني أحداً ولا يُعد منقصةً، لقد استعانَ الشاعرُ بالألفاظ المباشرة لتمثيل أفكارهِ وعواطفهِ (استعمال الدلالة الحقيقية للألفاظ) وبالصورة التي اختارها لأوصافهِ التي حرَّكَت الجمادات (ضحك المشيب برأسه فبكى) فالشاعر يضفي على النصّ وحدة متماسكة هي وحدة الشعور والاحساس بانسجام الأفكار والعواطف والصور وائتلاف اللفظ والتركيب مع المعنى العام .

أسئلة للمناقشة

١- يجمع مؤرخو الأدب على أن لدِعْبل منزلةً رفيعة في العلم والأدب والشعر أوضــح ذلك.

٢- بِمَ وصف ابن شرف القيرواني الشاعرَ دِعْبل في رسائل الانتقاد؟

٣- بِمَ اشتهر الشاعرُ دعبل الخزاعي؟ ومن هم أشهر شيوخه؟

٤- لقد حَرَّكَ الشاعرُ الجماداتِ في قصيدتهِ حدد ذلك شعراً.

٥- من أول من حقق ديوان الشاعر دعبل؟ وما هي أشهر آثاره ؟

البحتري

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ولد بمدينة (منبج) بين حلب والفرات سنة (٢٠٦ هـ) في أسرة ليست بذات يُسر، ونشأ نشأةً عربيةً، فصفا ذهنُهُ وفصحَ لسانُهُ. وتلقفَ ماتيَّسرَ له من العلوم العربية الإسلامية والعلوم الحديثة، وظهرت عليه مخايلُ النَّجابةِ منذ ريعان صباه، فاستهواه الشعرُ ومال إليه وعالجهُ وهو فتى، وتهيأ له أن يلتقي بأبي تمام الذي رأى فيه ما يُنبئ بشاعرية فذة فتعهده، ووضع له منهجاً دقيقاً في طريقة معالجة الشعر والإجادة فيه وذلك في وصيته المعروفة، فأخذ عنه وتأثر بطريقته ، ولاسيما الإكثار من البديع.

نشأ البحتري في الحقبة التي شهدت انعطاف أبي تمام بالشعر إلى المنطق والغوص في المعاني، والولوع بالبديع والاستعارات الجديدة، فترسّم خطاه في البديع، ووشَّح به شعرهُ، ولكنه فَضَّلَ ما كان منه سهلاً واضحاً وجَنَحَ إلى الخيال والطبيعةِ فاستمدَ منهما معانيه، وعُني عناية فائقة بالألفاظ وجرسها، حتى عُرِفَ بذلك، وامتازَ به من الشعراء، لقد تَصرَّفَ البحتري في فنونِ الشعر، واشتهر بالمديحِ والاجادةِ فيه والقدرةِ على تصويرِ أخلاقِ الممدوح، كما امتازَ بالغزلِ الرَّقيق الذي كان يتقدمُ قصائدهُ عامةً وبرعَ في وصفِ الطبيعةِ براعةً لم يسبقه أو يلحقه شاعرٌ آخر فيه، كما أبدعَ في وصفِ مظاهر العمرانِ، من قصورٍ فخمةٍ، وبركٍ عظيمةٍ، وفي الوصف الرائعِ لكثير من المعارك الحربيةِ التي خاضتها الجيوشُ العباسيةُ، وهي تتعقبُ الأعداءَ والمناوئين لها في البَّرِ والبحرِ.

توفاه الله سنة (٢٨٤ هـ) و له ديوانُ شعرٍ ضخم، و كتابُ (الحماسةِ)وهما مطبوعان.

قال البحتري في وَصفِ ذئبٍ: (للدرس فقط)

سـلامٌ عليكـمُ لاوَفـاءٌ ولا عَهـــــدُ
أمـــا لكُم مِنْ هَـجرِ أحبابِكُـم بُـدُّ

ولَيـلٍ كـأنَّ الصُّبحَ فــي اُخـرياتِـهِ
حُشاشَةُ نَصلٍ ضَـمَّ افرنْدهُ غِمْدُ (١)

تَسرْبَلْتُـهُ والذئبُ وسَنْــانُ هاجـعٌ
بعينِ ابنِ لَيْلٍ مالَــهُ بالكَرى عَهْدُ

أثيـرُ القَطــا الكُدريِّ عَـنْ جَثماتِـهِ
وتألَفُنـــي فيـهِ الثَّعالـبُ والـرُبْـدُ (٢)

وأطلّــسَ مِـلءِ العيـنِ يحَمـلُ زَوْرَهُ
وأضلاعُهُ مِـنْ جانبيـهِ شَـوَى نَهدُ (٣)

لــهُ ذَنــبٌ مِثـلُ الـرِّشـاءِ يَجـــرُّهُ
ومَتْنٌ كَمَتنِ القَوسِ أعوجُ مُنْـأدُّ (٤)

طَواهُ الطَّــوى حتَّى اسَتمَرَّ مريـرُهُ
فما فيهِ إلا العَظْمُ والرَّوُحُ والْجِلدُ (٥)

يُقضقِضُ عُصلاً فــي أسِرَّتِهـا الـردى
كقَضْقَضــةِ المقرورِ أرْعَدهُ البرْدُ (٦)

سَما لي وبي مِنْ شدَّةِ الجوعِ ما بِـهِ
بِبَيْداءَ لَمْ تُحسَسْ بها عِيْشَةٌ رَغْدُ

كــلانـــا بهـا ذئبٌ يُحـدِّثُ نفْسَـــهُ
بصاحبِـهِ والجِـدُّ يُتعِسُـــهُ الجَـدُّ

عَـوّى ثُـمَّ أقعـى وارْتَجزْتُ فِهجتُـهُ
فـأقبـلَ مِثْــلَ البْـرقِ يَتْبعـُهُ الرَّعْدُ (٧)

فأوجرتُـهُ خـرْقـاءَ تَحسِــبُ ريشهــا
على كَوكَب ينقضٌّ والليّـلُ مُسْـودٌّ (٨)
فمـــا ازْدادَ إلا جُـــرأةً وصـــرامـــةً
وأيقنـــتُ أنَّ الأمــرَ مِنْـــهُ هـــو الجِـــدُّ
فـأتبعْتُها أخـرى فأضللْتُ نَصْلهَـــا
بحيثُ يكونُ اللُـبُ والرُّعبُ والحِقْـــدُ
فَخــرَّ وقـــد أوردتـــهُ منهَـلَ الــرَّدى
علــى ظَمـأ لـــو أنـــّه عَـذُبَ الـــوِرْدُ
وقُمْتُ فجمعَّتُ الحَصـــى واشتـوَيتُـهُ
عليــهِ وللــرَّمضاءِ مِـــنْ تحتــهِ وَقْـدُ
ونِلْــتُ خَسِيساً مِنْـهُ ثُـمَّ تـركْتَـــه
وأقَلعْــتُ عنْـــهُ وهـــو مُنعَفِـــرٌ فَــرْدُ

اللغَة :

١ ـ نَصل: بقيته.
إفرنْدُه: جوهره ووشيه، ويقصد بحشاشَتِهِ : بقية .
٢ ـ الكُدريِّ: ضرب من القطا غُبْر الالوان رقش الظهور صفر الحلوق.
٣ ـ الأطّلسَ: أي الذئب في لونه غُبْرةٌ إلى السواد، وكلُّ مَنْ كان على لونه فهو طلس.
٤ ـ الرِّشاءِ: الحبل.
٥ ـ الطَّوى: الجوع.
٦ ـ يُقضِقض: يخرج صوتاً من أنيابه.
عُصلاً: اي أنياباً عصلاً (والاعْصلَ: الأعوج في صلابة).
٧ ـ أقعى : جلس مفترشاً رجليه وناصباً يديه.
٨ ـ فأوجرته: أصبت مقتله.

التعليق النقدي

إنَّ ظاهرة وصف الذئب و حضوره في الشعر العربي قديمة. بدأت عند امرئ القيس ومصاحبته له: وحتى البحتري الذي أكله. وهذا يعني أنها دورة تمثل دورة تغيرالحياة من مجتمع صحراء (العصر الجاهلي) الى مجتمع المدينة في (العصر العباسي) ... وتغير العلاقات الاجتماعية والوعي. ولعل أول شاعر فتح الباب لأدب الذئب في الشعر العربي امرؤ القيس فهو يقول:

وَوادٍ كجوفِ العيرِ قفر قَطَعتهُ
به الذئبُ يعوي كالخليعِ المعيلِ
فَقلتُ له لما عوى: إنَّ شأننا
قليل الغنى إنْ كنت لما تموَلِ
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته
ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

تَبَعَهُ المرقشُ الأكبر الذي يلتقي ذئباً في ليلةٍ موحشةٍ وأرضٍ مقفرةٍ ومعه بعضُ أصحابهِ... فيشعلُ النارَ طلباً للدفء والشواء فينجذبُ نَحوها ذئبه ... واذا بالشاعر يلقي له بقطعة من الشواء ويجعل منه أحد جلاسه حينها يَهِزُّ الذئبُ راسهَ شاكراً.

ولما أضَأنا النار عندَ شوائِنا
عرانا عليها أطلس اللونِ بائس
نبذتُ إليه قطعة(١) من شوائِنا
حياء وما فحشي على من أجالس
فآب(٢) بها جذلان ينفض رأسه
كما آب بالنهب الكمي المخالس

(١) وتروى فلذة.
(٢) وتروى فآض.

أما الفرزدقُ فهو يقسم الزَّادَ بينه و بين الذئب من دون أن يغفل عن الإمساك بقائم سيفه... وفي هذه المرحلة تتغير العلاقةُ فتأخذ طريقَ الحذر ... فإذا ضحك الذئبُ بعد أن أكلَ وشبعَ ضحكَ الفرزدقُ واطمأنَ له وتعاهدا على عدم الخيانة.

واطلس عسال... وما كان صاحباً
دعوت لناري- موهناً - فأتاني
فلما دنا...قلت ادنُ دونك إنني
وإيـاك - في زادي- لمشتـركـانِ
فبِـتُّ أقـدّ الـزاد بينـي وبينـه
على ضـوء نـارٍ مـرّةً ودخانِ
وقلـتُ لـه لما تكشَّـر ضاحكـاً
وقـائـم سيفي مـن يـدي بمكـانِ
تعشَّ ... فإنْ عـاهدتنـي لاتخوننـي
تكن مثل مَنْ ياذئب يصطحبـانِ

ويظل أدبُ الذئبِ تترددُ اصداؤه في شعرنا القديم دالاً على أحد ملامح مجتمع الفروسية حتى يستقر المجتمع المدني وتذوي الفروسية ويفقد العربي صداقته مع وحش الصحراء فيصبح له قاتلاً متربصاً بعد أن كان صديقاً... فالشاعر البحتري الذي تبدأ قصيدته بمقدمة ... ثُمَّ تتحدثُ عن الذئب، والحديث عن الذئب وفيرٌ في تراثنا القديم، ومن أمثالهم الكثيرة في هذا المجال قولهم: (أظلمُ من ذئب).

تبدأ القصيدة بمقدمة لاتنفصل عن الموضوع، وهو مقابلة الذئب والانتصار عليه أو بعبارة أخرى مقابلة المعوقات الكبيرة والتغلب عليها بحسم وإقدام .

يقضي البُحتري ليله وحيداً في البيداء، إذْ يوشك ذلك اللّيل على الانتهاء ليطل الصّباحُ وكأنه في إطلالتهِ البيضاءَ، بقَّيةُ سيفٍ متلألئة لم تغمد، إنَّه السَحَرُ وقتاً أو (الزمن الرمادي) حين يلتقي بذئب وسنان، في بحثه عن الطَّعام، وهاجع بعين من شدة حذره، فلا يعرف للنوم طعماً، ينفعل البحتري أمام هذا الذئب، فيتحرَّكُ حركة فيها قوةٌ وبأسٌ وفتوةٌ، حيثُ يسير مثيراً القطا الرمادي عن مراقده، وهو الفتى الشجاع الذي تعرفه وحوش تلك البيداء فيقتربُ منه ذئبٌ أطلسُ اللونِ، وقد استند صدَرهُ وأضلاعَهُ على أطرافٍ دقيقةٍ بارزةٍ يجرُّ ذَنَباً كالحبل في اتساقه، وله ظهرٌ كظهر القوس في دقَّةِ انحنائه، إنه ذئبٌ يُعاني آلامَ الجوعِ الذي صَيَّره نحيفاً، ليس فيه (إلاَّ العظم والروح والجلد) فثورة الجوعِ قد ارتسمتْ على أسنانهِ، وهي تصطَّكُ بصوتٍ يشبه صوتَ أسنان مقرورٍ أَفزعه البردُ، فقد ظهَر هذا الذئبُ الجائعُ بكلِّ ملامحهِ وسماتهِ البائسةِ الشديدةِ، ليقابل البحتري الجائعُ هو الآخرُ في فلاةٍ قاسيةٍ جَرداء، فكان اللقاءُ الغريبُ بين ذئبين جائعين إنساني وحيواني، لقاء فيه عنصرُ التحدي والصراع، سيتحولُ هذا اللقاءُ الغريبُ الصامتُ إلى صراعٍ دامٍ متحركٍ ومتوثبٍ، فيعوي الذئبُ ويجلسُ على مؤخرتهِ (أقعى) استعداداً للانقضاضِ على فريستهِ، مُعْلناً عن بدءِ الصراعِ والتحدي، فيقابله البحتريُ بصوت ذئبي بحرارةٍ وقوةٍ قاصداً إبعادَه، بَيْدَ أَن الذئب لايُبالي برَدِّ الفعل العنيفِ هذا فَيَقبلُ عليهِ بقوةٍ وتدفقٍ مثل (البرق يتبعه الرعد) بحركةٍ مزمجرةٍ وصوتٍ مدوٍّ حيثُ يدركُ البحتري ادراكاً لاشائبة فيه، أنّ الذئبَ قاتلهُ لا محالةَ فيطعنُه بسهمٍ سريعٍ خاطفٍ ولكن الطعنة تلك لم تزجره أوتُقَلِل من شدَّةِ عزمهِ على قبول التحدي والاندفاع في غمرةِ الصراع، بل انطلقَ بكلِّ جرأةٍ وصرامةٍ، أذهلتْ البحتري أيّما ذهولٍ فيسددُ له طعنةً أخرى قاتلةً،

يخرُّ على إثرها ميتاً، إذْ تهدأ حركةُ هذا الصراعِ الدامي، وينتهي مَشْهدُ التحدي نهايةً مأساويةً بالنسبة الى الذئب ، فيقوم البحتري بجْمع الحَصَى تمهيداً لِشيِّ غريمه، ايماناً بانتصارهِ، فينالُ منه قدراً قليلاً ويتركه ممُرَّغاً في التُّراب اختلطَ دمُهُ بأنينِ جوعهِ، ضحيةً بائسةً، باردةً في بيداءَ موحشةٍ مقفرةٍ.

تمتازُ هذه اللوحةُ الشعريةُ البحتريةُ بوصفها الحسَّي الدقيقِ. وهو الفنُ الذي برعَ به البحتري البراعةَ كلّها بين شعراءِ عصرهِ، وقد أبدعَ في تجسيد الحركة النفسيَّةِ في اللقاءِ المأساوي بينه وبين ذئبهِ، هذه الحركةُ التي اختلطَ فيها الانفعالُ والتناقضُ في وجدانيهما، لدرجةٍ صارَ فيها الذئبُ بالنسبة الى البحتري رمزاً للعدمية أو الظلم الذي كان يعانيه- كما يظهرُ ذلك من خلالِ القصيدة كلّها- وقد أكسبتْ لغُتها الحسَّيةُ، المطعَّمةُ بالخوفِ والتوترِ والأسى، هذه اللوحةُ الشعريةُ قيمةٌ جماليةٌ معتمدةٌ على تشبيهاتٍ مركَّبةٍ ذاتُ لغةٍ انفعاليةٍ مصّورةٍ.

أسئلة للمناقشة

١- من أين تبدأ دورة أدب الذئب، وماذا تعني؟

٢- في أي الأبيات تلمح إبداع البحتري في تجسيد صوره، حسياً؟

٣- هل يوحي ذكر الذئب اشارة إلى فكرة معينة ؟ أوضح ذلك.

المتنبي

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من سلالة عربية صميمة، ولد بالكوفة سنة (٣٠٣هـ) في محلة كندة، من أبوين فقيرين، ونشأ بها وتعلم في كتاتيبها، ثم شدا ما تيسَّر له من علوم العربية المختلفة وارتأى الخروجَ ِ الى البادية واتصل ببعض القبائل العربية فصحَّ جسمُه وصفا ذهنه، وأخذ عنها اللغةَ واكتسبَ الفصاحةَ وعشق الحريةَ فَفَصُح لسانُه، وتأثر بالعلوم الحديثة وخاصةً الفلسفة التي كان لها في حياته مجال فسيح.

وكان الشعرُ يترددُ على لسانِه، وينساب قوياً هادراً ، وكان يتعاظم في شعره، حتى تسنى له أنْ يلتقي بأمير عربي شجاع كريم، هو سيف الدولة الحمداني، فأُعْجِبَ كلُّ منهما بصاحبه، وكان الشاعرُ يلازمه في حلِّهِ وترحالهِ ويَنْظِمُ فيه أروعَ ما جادتْ به عبقريتُهُ الشاعرةُ،ولكن سرعان مانشأ خلاف بينه وبين سيف الدولة فغادر الى مصر قاصداً حاكمها كافوراً الإخشيدي، الا ان الشاعرغادر مصر ، وقد نجحَ الشاعرُ في الوصول إلى بغدادَ ومنها إلى عضد الدولة ووزيره ابن العميد في الشرق، وعند رجوعه اعترضه بعض مناوئيه ممن هجا بعضاً منهم محاولين النيل منه فقاتلهم وسقط صريعاً سنة (٣٥٤ هـ).

كان المتنبي منذ نشأتهِ، كبيرَ النفس، عاليَ الهمة، عفيفاً عَزُوفاً عن اللذات، مشغولاً بطموحِه إلى المجد، محباً قومه، كمَا كان حاد الذكاء قوي الحافظة، متضلعاً من اللغة . وهو أكثر الشعراء حفاوة بالأمثال والحِكَم، حتّى تكاد تطغى على أكثر ما أثر له من شعر، وقُدِّرَ له أَنْ يَعرض هذه الأمثال والحِكَم عرضاً أدبياً رائعاً، فدارت على ألسنة الناس في كلِّ وقتٍ وكلَّ مناسبةٍ ، وفي شعرهِ إحساسٌ عميقٌ بالحماسة والفروسية وهو يَظْهرُ واضحاً في أكثر فنونه الشعرية، ولاسيما المدح والفخر والوصف والرثاء والغزل.

وفي شعرهِ شيءٌ من التعقيد اللفظي، ولعل مردَّ ذلك إلى ثقافتهِ اللغويةِ الواسعِة التي اغترفها من حياة البادية .

برعَ المتنبي في كلِّ الفنون الشعرية التي طرقها وأجادَ كثيراً في الوصف ولاسيما وصف المعاركِ الحربيةِ التي كان يخوضها سيفُ الدولة، فقد صوَّرها تصويراً حَيّاً رائعاً ، كما أجادَ في أغراض شعرية أخرى:كالمديح...والفخر والرثاء والهجاء والشكوى والحكمة ، له ديوانٌ مطبوعٌ وقد شرحه كثيرُ من الشارحين .

قال أبو الطيب المتنبي في وصف الحُمىَّ :

(للحفظ ٦ ابيات)

وزائـرتـي كـأنَّ بهـا حيـاءً ... فليـسَ تـزورُ إلا فـي الظـلامِ
بذلتُ لهـا المطارف والحشايـا ... فعافَتْهـا وباتَـتْ فـي عظـامـي (١)
يضيقُ الجلـدُ عـن نفْسي وعنهـا ... فتـوسِعُـه بأنـواع السقـامِ (٢)
كـأنَّ الصبح يطردهـا فتَجـري ... مـدامُعهـا بـأربعـةٍ سجـامِ (٣)
أراقبُ وقتَهـا مـن غيـرِ شـوق ... مراقبـةَ المَشُـوقِ المستهـامِ (٤)
ويصدقُ وعـدُها والصدقُ شـرّ ... إذا ألقـاكَ فـي الكَـربِ العظـامِ (٥)
أبنتَ الدهـرِ عندي كـلُّ بنـتٍ ... فكيفَ وصلتِ انتِ من الزحـامِ (٦)
جرحتِ مجرَّحاً لـم يبقَ فيـه ... مكـانٌ للسيـوفِ ولا السهـامِ
ألا يـا ليـتَ شعـر يدي أتمسـي ... تـصـرف فـي عنـانٍ أو زمـامِ
يقول لـي الطَّبيبُ أكلـتَ شيئـاً ... وداؤك فـي شرابـك والطعـامِ
ومـا فـي طبـّه أنـي جـوادٌ ... أضَـرَّ بجسمـه طـولُ الجمـامِ (٧)
تعـوَّدَ أنْ يغبـّر فـي السـرايـا ... ويـدخـل من قتـام فـي قتـامِ (٨)
فامسك لايطـالَ لـه فيرعـى ... ولاهـو في العليق ولا اللجـامِ (٩)
فإنْ أمرضْ فما مرِض اصطبـاري ... وإنْ أحـمـْ فمـا حُـمَّ اعتزامـي

اللغة:

١ـ المطارف: جمع مِطرف، رداء من خزّ (ثوب من حرير).

الحشايا: جمع حشِيّة . ماحشي من الفراش مما يجلس عليه.

٢ـ السقام: المرض .

٣ـ سجام: منسكبة، سجمَ الدمع، سال وانسكب.

٤ـالمستهام: الشديد الشوق.

٥ـ الكَرب: جمع كربة، وهي الشدة والمصيبة.

٦ـ أبنتَ الدهر: بنات الدهر شدائده.

٧ـ الجمام : الراحة. (ان يترك الفرس فلا يركب).

٨ـ يغَبّر: يثير الغبار في المعارك.

السرايا : جمع سرية ، وهي القطعة من الجيش.

القتام : غبار المعارك.

٩ـ لايطال له : اي لايطال له حبله ليتمكن من الرعي. ولاهو في السفر فيعلف من المخلاة المعلقة في رأسه لاطعامه.

التعليق النقدي

هذه الأبيات قالها المتنبي بمصر، وكان طريح الفراش بسبب حمى أصابته، وهوَ يَهمُّ بالرَّحيلِ عن مصر بعد أَنْ ساءَتْ علاقُتهُ بحاكم مصر آنذاك، كافور الاخشيدي.

فالبيتُ الأولُ وقد سَبَقَهُ عشرون بيتاً في ديوان المتنبي، يتحدث الشاعر فيها عن فروسيتهِ، وانسهِ بالصحراء، ومعرفتهِ بحقيقة الناس وزَيفِ مشاعرهم وفخرهِ بفضائلهِ وحَسبه، لابنسبه، ويأسَفُ لما صارَ عليه الناسُ من لوْمٍ وحسدٍ لايتناسب أحياناً وأصولهم الكريمة، ثم يشكو مما اعتراه من ضعفٍ وَوَهنٍ مع قِلّةِ الصَّديقِ وكثرةِ الحاسد وصعوبةِ المرام والطلبِ،وهو بهذا الوصف لحالتـــه النفسيةِ الملأى بالإحباط المفعمةِ بالمرارةِ والخيبةِ،

يُمَهِّدُ للمقطع التالي (وصف الحمّى)،وهذا التمهيدُ حافلٌ بأبياتِ الحكمةِ المشحونةِ بالعاطفةِ القويةِ .

يتحدث المتنبي عن زائرةٍ تزوره سِرّا وقد أَدمنتْ زيارته، حتَّى صارت كأنها مختصةٌ به، لذلك أضافها إلى نفسهِ فقال وزائرتي، وهي تَسْتحي من زيارته، فتأتيهِ في جنح الظلام وتتسلل إليه، ولما كان الشاعُر كريماً، يحسنُ رفادةَ الضَّيفِ فقد بذلَ لها اجملَ ثيابه وأوثر فراشه، فأبتْ ذلك وعافته، مختارة أن تبيتَ في عظامهِ، (والحمّى تظهر آثارها في الجلد أولاً بارتفاع الحرارة فيه، فإذا اشتد أثرها صارت إلى العظام).

إنّ جِلْدَ الشاعرِ يضيقُ بنفسهِ وبها، لفرط الأذى الذي احدثته له، ولكنها تقابلُ ضجَرهُ منها بمزيدٍ من الآلام والأسقام حتّى إذا جاءَ الصباحُ تَسَللتْ من مخبئها- كما يتسللُ اللصُّ المختبئ خوفَ الفضيحة وكأنَّ الصبحَ طاردٌ لها، وهي اذ تكرهُ مفارقةَ صاحبها تبكي لألم الفراق بمدامع صاحبها الأربعة، (لحظيه وموقيه، والأصل في البكاء أن يكون من موقي العين فإذا كثر صار من اللحظين ايضاً)، وهويريدُ بهذا كثرةَ العرق المتصبَّب بسبب الحميّ. ويتكرُر هذا اللقاءُ وهذا الفراقُ كلَّ يوم وليلة. وهو يَرْقبُها مراقبةَ المشوقِ المستهامِ بها،لكن من غير شوقٍ ولارغبةٍ باللقاء، وتلك مفارقةٌ، وهي لاتَخْلفُ وَعْدَها ولا تَكْذبُ صاحبَها، وليتها اخلفتْ وكذبتْ لأن هذا الصِّدقَ شرٌّ أيّ شّرٍّ حين يلقيك في الشدائد والمحنِ . ثم يلتفتُ الشاعر إليها مخاطباً، فيكشفُ لنا عن اسمها أو كنيتها. فيقولُ لها (أبنت الدهر)، مستعملاً همزة النداء التي تختصُ بنداءِ القريبِ، مكاناً أو مكانةً. ويسألُها كيفَ وصلتْ إلى قلبهِ المزدحمِ بالمصائب والخطوب ، وهي واحد منها مستعملاً التوكيد اللفظي بالضمير (انت) لإبراز خصوصيتها. ثم يَسْخَرُ منها: لاتظني أنكِ انتصرتِ عليَّ. ولاتقولي إنكِ صرَعْتِ رجلاً عركتْهُ الأسفارُ، والأخطارُ. لا، لقد جئتِ رجلاً كثيرَ الجراحِ، لم تتركْ السَّيوفُ والسَّهامُ فيه موضعاً لغيرها.

ويعودُ الشاعرُ إلى نفسهِ، والحديثِ عنها وعن أمنياتها. فيقول ليتَ شعري هل تَمسْكُ يدي عنانَ الفرسِ في الحرب، أوزمامَ الناقةِ في السَّفر مرةً أخرى؟

ثم يخبرنا بأسلوب متهكم متوجع معاً :

يقول لـــي الطبيب أكــلت شيئـــاً	وداؤك فـــي شرابك والطعـام

وهذا الطبيبُ قد أخطأ في تشخيصِ المرضِ ومعرفة الدَّاء فهل يحسن وصف الدواء.

إنه جوادٌ اضرتْ به الراحة، ومَنعهُ من الاضطرابِ والحركة، وهو المتعوّدُ على أن يثير غبارَ المعاركِ و هاهو طريح فراشه ـ لا هومسموح له بالحركة ليتحرك ولا هو قد أحسن إليه، فيقرَّ في مكانه.

وهو بهذا يصور حالَتهُ مع كافور، الذي اختار بعد ذلك بوقت يسير أَنْ يفرَّ منه، ويكتبَ قصيدته المشهورة:

عيــدٌ بأيــةِ حـــالٍ عدت يـــاعيدُ	بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ

ثم يقول بعد ذلك مؤكداً قوة عزمه، وجميل صبره على البلوى:

فإنْ أمرضْ فما مرض اصطباري	وإنْ أحممْ فما حُمَّ اعتزامـــي.

هذه القصيدة من مختارات شعر المتنبي ـ وشعرهُ كلُّهُ جيدُ مختارُ ـ اخترناها لك ـعزيزي الطالب ـ لفرادة موضوعها اذ لم يتطرق الشعراء الى هذا المعنى ـ وصف الحمّى ـ إلا المتنبي وعبد الصمد بن المعذل قبله، لكن قصيدةَ المتنبي تفوقُ قصيدةَ ابن المعذل في حسن نظمها وجودة ألفاظها،والقصيدةُ، بعد ذلك، مفعمة بالحكمةِ، مشحونةِ بالعاطفةِ التي هي مزيجُ من الشعور بالقوةِ والخيبةِ والمرارة وتُمثِّلُ أصدق تمثيل قيم المروءةِ العربية في الفتوةِ والصَّبرِ على المكارهِ والطموحِ الى الكمالِ المستطاعِ يقول فيها في المقطع الذي مهّد فيه لوصف الحمىّ:

عَجبْــتُ لمـــن لـــه قـــدٌّ وحـــدٌّ	وينبو نبوة القضِمِ الكهــامِ(١)
ومَنْ يجد الطريق إلى المعالي	فلا يذرُ المطــيَّ بــلا سنــامِ(٢)
ولم ارَ في عيوبِ الناس شيئـاً	كنقصِ القادرينَ على التمـامِ

(١) القضم: السيف المثلوم، الكهام : الذي لايقطع .

(٢) يتركها تسمن ولا يهزلها بطول المسير لتحقيق غايته .

فهو يعجب ممن يجدُ القدرةَ في نفسهِ ولايسعى إلى الكمال .

إنَّ أسلوبَ المتنبي في هذه القصيدة وسواها يعتمدُ على المفارقةِ الغريبةِ والاستعارات غير المألوفة، واللغة الجزلة الفصيحة، الـمتدفقة الـمفعمة بالعواطف الحارة، والحكمة المستقاة من تجاربهِ الأليمةِ وخبرتهِ بالناس والأشياء، وحسن اختياره لمطالعه وقوافيه وأوزانه فلا شَكَّ أنَّكَ تلاحظُ الحرف ِالميم ِالمكسورة ِمن قدرة ٍ على الايحاء بالصَّوت المنكسر الموحي بالضعف، وهو ما يناسب حالة الشاعر في ضعفهِ ومرضهِ .

يَدلُّ على ذلك أنهّ اختارَ في مطلعه ِ:

ملومكما يجلّ عن الملام	ووقعُ فعالهِ فوق الكلام

لفظة (ملومكما) والشائع عند الشعراء استعمال لفظة (العذل بدل اللوم) إلا أنه أراد الإيحاء الصوتي المناسب لحالة الحزن والانكسار.

أسئلة للمناقشة

١ـ ماسبب اختيارهذه القصيدة لتكون أنموذجاً لشعر المتنبي ؟

٢ـهل لموضوع القصيدة خصوصية بين موضوعات الشعر ؟

٣ـ كيفَ وجدتَ أسلوبَ المتنبي ؟

٤ـ اخترْ من الأبيات بيتاً أعجبك وبيِّن سبب إعجابك به .

٥ـ ما المناسبةُ التي أوحتْ للشاعر هذه القصيدة ؟

الشَريفُ الرّضيّ

هو محمد بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف الرضيّ، ولد ببغداد سنة (٣٥٩هـ) ونشأ في رعاية والده الذي تعهَّد بتربيته وتعليمه العلوم العربية الإسلامية من أدب ونحو ولغة وشعر وفقه وفرائض فبرع في كثير من هذه العلوم، وصنف فيها كتباً. عاش الشريفُ الرضي مُكرماً ومحترماً في عصره، وكان نقيباً للطالبيين وظل في هذا المنصب حتى توفاه الله في سنة (٤٠٦هـ).

كان أَبيَّ النفسِ، رفيعَ المكانة بين الناس، عفيفاً ذا ورع وزهد وقد انعكست أكثرُ هذه الصفات في شعره الذي كان صورةً صادقة لشعوره، وعواطفهِ واختلاجات نفسه وتجاربه في الحياة وكان الشريفُ الرضيّ مثالاً للتسامح الديني، يرتبط بعلاقة طيبة بالاديب أبي إسحاق الصابي، وبينهما مودةٌ صادقةٌ ومراسلاتٌ أدبيةٌ تُظْهِرُ صورةَ تلك العلاقة نقرأها في كتاب (رسائل الصابي والشريف الرضيّ)، وهي من المراسلات الإخوانية الأدبية الرفيعة . وحين توفي أبو اسحاق الصابي رثاه الشريف الرضيّ بقصيدة عامرة، عدها الثعالبي من أشهر مراثي العرب وكان لها دويٌّ عظيمٌ في عصرها. منها قول الرضيّ :

أعلمتَ مَنْ حملوا على الاعوادِ	أعلمتَ كيفَ خبا ضياءُ النادي
إن لم تكن مِنْ أسرتي وعشيرتي	فلأنتَ أعلقُهم يداً بودادي
الفضلُ ناسَبَ بيننا إنْ لم يكنْ	شرفي مناسبهُ ولا ميلادي

نحا شعره ـ الذي قاله وهو في سن مبكرة من عمره فأجاده حتى أصبح من الشعراء المرموقين ـمنحى أسلافه من شعراء العرب في العناية بالمعنى والحفاوة به، وفي المحافظة على قوة الأسلوب، وجمال اللفظ وشعره يتناول أغلب الفنون المعروفة في عصره ولكن أكثره في الفخر والحماسة والمدح والشكوى والرثاء.

من آثاره المطبوعة :(حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، تلخيص البيان عن مجازات القرآن ، مجازات الآثار النبوية ، نهج البلاغة (جمع) فيه خطب الإمام علي (عليه السلام) ، ديوانه)

و من حجازيات الشريف الرضيّ، قصيدته الكافية، ومنها قوله:

(للحفظ: ٨ أبيات)

يا ظبيةَ البان تـرعى فـي خمـائلـهِ ... لِيَهنكِ اليـومَ أنَّ القلـبَ مَرعـاكِ (١)

الماءُ عنـدَكِ مبـذولٌ لشـاربـهِ ... وليس يرويك إلا مدمعـي الباكي (٢)

هَبَّتْ لنـا مِنْ ريـاحِ الغـور رائحـةٌ ... بعدَ الرُقـادِ عـرفنـاهـا برَيّـاكِ (٣)

ثُمَّ انثنينـا إذا مـا هـزنـا طـرَبٌ ... علـى الرّحـالِ تَعَلّلنـا بِذكـراكِ (٤)

سهمٌ أصـابَ وراميـهِ بـذي سلَـمٍ ... مَنْ بـالعراقِ لقد أبعدتِ مرمـاكِ (٥)

وعدٌ لعينيكِ عندي ماوفيت بـهِ ... ياقربَ مـا كذّبَتْ عينيَّ عينـاكِ

حَكتْ لحاظُكِ مـافي الريم من مُلَحٍ ... يوم اللقاء فكـان الفضلُ للحاكي

كـأن طرفكِ يـوم الجـزع يخبرنـا ... بما طوى عنكِ من أسماء قتلاكِ (٦)

أنتِ النعيمُ لقلبـي والعـذابُ لـه ... فما أمَرَّكِ فـي قلبـي وأحـلاكِ

عندي رسـائـلُ شوقٍ لستُ أذكرها ... لـولا الرقيـبُ لقـد بلَّغتهـا فـاكِ

اللغة

١ـ البان: شجر طري الأغصان .

الخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر الملتف الأغصان.

٢ـ مبذول: ميسور، متيسر.

٣ـ الغور: الوادي، الأرض المنخفضة.

ريّاك: عطرك ورائحتك الطيبة.

٤ـانثنينا: عُدنا ورجعنا.

تعلل: تلمس العلة والعذر.

٥ـذي سلم: مكان بالحجاز، مكان للنزهة .

٦ـالجزع: وادٍ بالحجاز تتنزه فيه الحسان .

التعليق النقدي

هذه واحدة من قصائد الشريف الرضي المعروفة بـ(الحجازيات)، وهي قصائد نظمها الشريف الرضيّ في حجه، موضوعها الغزل والحنين إلى العراق، وهي كما ترى عفيفة الألفاظ، تنم عن عاطفة نقية لم يشبها وصف رخيص أو عبارة جارحة تخدش السمع أو الحياء أو الأدب، ولجمالها وصدقها عارضها الكثير من الشعراء منهم الشاعر أحمد شوقي في قصيدته (جارة الوادي)التي مطلعها :

ياجارة الوادي طربتُ وعادَني   ما يُشبهُ الاحلامَ من ذكراكِ

يخاطب الرضي في هذه الأبيات حسناء يتوهمها ظبية رشيقة القوام كأغصان البان التي ترعى في الخمائل ومرعاها قلبه، ولاتدري من تيمهم حبها، ولاترى دموعهم التي تترقرق ، ولقد هبَّتَ عليهم رائحة زكية عبقة من الغور عرفوها لها من رياها وعطرها، فشغلت قلبه وعقله، فلم تعد له ذكرى يتسلى بها غير ذكراها

ولقد أصابته سهام لحاظها،وهي الحسناء الحجازية وهو العراقي فما أبعد المرمى ! وما أبعد إصابتها ولقد وعدت عيناها عينيه، وما أقرب ما كذبت ما وعدته ! وأي عيون ؟ إنها تشبه عيون الريم ملاحة وجمالاً، تتحدث عمن صرعتهم وأسرتهم وهم كثر حتى ضاع عليها عدَّهم، ومع هذا فهي نعيم قلبه، بل هي عذابه.

من عرض هذه القصيدة وقراءتها رأينا أبياتها سلسة الألفاظ سهلة واضحة المعاني متسلسلة الألفاظ، حتى لتبدو للسامع أنه قادر على مجاراتها والنظم على سننها ونهجها ، فإذا حاول ذلك أعيا وعجز وهذا الذي نسميه (السهل الممتنع)،كما تبدو فيها فنون البلاغة وقد جاءت دون تكلف أو إعمال فكر وتعقيد، فالشريف الرضي يشبه لحاظها بالسهام، والمجاز في القصيدة يرد سهلاً لا تكلف فيه فطرفها يخبر، والتشبيهات بسيطة يظن من يسمعها انه قادر على الإتيان بها، فهي نعيم لقلبه وهي عذاب ، وهي مرة وهي حلوة، فهو يجسد الصورة بمراعاته الاضداد وهو ما نسميه الطباق أو المقابلة،واخيراً يكني عن أشواقه بأنها رسائل يبلغها لها لولا الرقيب . إنه غزل عفيف رائع لا يخدش سمعاً ولاحياء ولا أدباً ولا حساً .

أسئلة للمناقشة

١ـ من أية مجموعة من شعر الشريف الرضي هذه القصيدة ؟

٢ـ كيف كانت صور الشريف الرضي وألفاظه في هذه الأبيات ؟

٣ـ لِمَ سميت هذه القصائد بـ (الحجازيات)، وما ميزتها ؟

٤ـ من عارضها من الشعراء ؟ وماذا قال؟

٥ـ تغزل شعراء الحجاز في العصر الأموي بالوافدات الى الحج، فكيف كان غزلهم؟

ابن الفارض

هو عمر بن علي، عربي النسب، من عائلة أصلها من (حماة) ونزحت إلى القاهرة وفيها ولد شاعرنا سنة(٥٧٦ هـ) في بيت معروف بالتديّن وكان والده أحد القضاة.

نشأ ابن الفارض في رعاية والده الذي تولّى تربيته تربية دينية قويمة، وتلقى العلوم العربية الإسلامية على علماء عصره، كما كان يحضرُ مجالسَ أبيه القضائية والعلمية، وكان منذ صباه يحب العزلة والتفرّد، وانتقل بعد وفاة والده إلى الحجاز وبقي فيه مدّةً طويلة، كان يطوف في أوديته وشعابه، حتى كان يأنس بالحيوان والوحش، وكان لمقامه الطويل في الحجاز أثر كبير في حياته وشعره واتجاهه. ثم رجع إلى مصر وقضى فيها بقية حياته بالتبجيل والاحترام وكانت وفاته في سنة (٦٣٢هـ).

وكان منذ مطلع حياته -كما تقدم - ميالاً إلى التعبد والتفرّد مما رشحه هذا إلى أن ينهج في حياته وشعره منهج التصوف الذي كان شائعاً في عصره، والذي يتميّز بالرياضة العنيفة للنفس والجسم على السواء، والمجاهدة في مقاومة الملذات بكلِّ وسيلة من أجل التقرّب إلىالله.

كان ابن الفارض يحب الشعر ويميل إليه، وساعَدَ في هذا رقَّة طبعه ورهافة إحساسه وموهبته الشعرية الجيدة، ومشاهداته الكثيرة في مصر والحجاز وهو ذو النَّفس الطويل في الشعر، ولكنه لم يكن مكثراً فهو على الرغم من نظمه الشعر مدة طويلة وانقطاعه إليه لم يترك سوى ديوان صغير، خصَّ أكثره بتصوير منحاه الصّوفي الرُّوحي، كما اتخذ من الغزل والخمر مداراً لكلِّ ما أراد في هذا الصدد، حتى ليصعب على القارئ في كثير من الأحيان التمييز بين غزله وخمرياته هذه التي يراد بها الإشارة إلى الرمز الصوفي، وبين سواها من الغزل والخمريات التقليدية.

يمتاز أغلب شعره بالرَّقة والسلاسة والوضوح إذا أُخذ بظاهره، كما يحفل بالصور الجميلة، والأخيلة اللطيفة ويشتمل على كثيرٍ من الفنون البديعية : من جناس وطباق، ومن مميزات شعره الإكثار من ظاهرة التصغير الذي من أغراضه التَّحبب والتمليح، غير أن بعض شعره لايخلو من غموض أو تعقيد.

من آثاره المطبوعة : ديوانه الذي شرح أكثر من مرّة.

قال ابن الفارض من قصيدة طويلة :

(للدرس فقط)

قَلبي يُحدّثني بأنّكَ مُتْلِفي

رُوحي فِداكَ عَرَفْتَ أم لم تَعرِفِ (١)

لم أقضِ حَقّ هَواك إن كُنت الذي

لم أقضِ فيهِ أسىً ومِثليَ مَنْ يَفي (٢)

مالي سِوى رُوحي وَباذِلُ نفسهِ

في حُبِّ مَنْ يَهواهُ لَيسَ بِمسرفِ (٣)

فَلَئِنْ رَضيتَ بِها فَقدْ أسْعَفْتني

يَا خَيبَةَ المَسْعى إذا لم تُسعِفِ (٤)

يامانِعي طِيبَ المنام ومانِحي

ثوبَ السّقام به ووجدِي المُتلِفِ (٥)

عَطفاً على رمَقي وما أبَقَيت لي

مِنْ جِسْميَ المُضنى وقَلبي المُدنفِ (٦)

فالوَجدُ باقٍ والوِصالُ مُماطلي

والصَّبرُ فانٍ واللقّاءُ مُسوِّفي (٧)

لمْ أخْلُ من حَسَدٍ عليكَ فلا تُضِع

سَهري بِتَشنيع الخَيالِ المُرجفِ (٨)

واسْـألْ نُجـوم اللّيـل هَلْ زَارَ الكرى

جَفني وكَيفَ يَزورُ مَنْ لَـمْ يَعرف

لا غَرْوَ إن شَحَّت بِغمض جُفونِهـا

عيني وسَـحَّتْ بالدُمـوعِ الذُرَّف (٩)

وبِما جَرى في موقـفِ التَّوديع مِن

ألمِ النوى شاهـدْتُ هَوْلَ المَوقفِ (١٠)

إن لَمْ يـكُنْ وصــلٌ لديك فَـعِدْ بــه

أملـي وماطِلْ إن وعدتَ وَلا تـفـي

فالمطلُ مِنـك لَـديَّ إن عزَّ الوفـا

يحلُو كَوصلٍ من حبيبٍ مُسعِفِ (١١)

أهفُو لأنـفـاسِ النَّسيمِ تَـعِلَّــةً

ولِوجـهِ مَـنْ نَقَلتْ شَذاه تَشَـوُّفي (١٢)

فـلَـعلَّ نـارَ جوانِـحي بِـهُبـوبِـها

أنْ تَـنـطـفي وأَوَدُّ أن لا تـنـطـفْي (١٣)

اللغَة

١ـ مُتْلفي: مهلكي ومعطبي .

٢ـ أقضي حقَّ هواك: أفي به .

أقضي فيه: أموت.

الأسى: الحزن .

٣ـ المسرف : المجاوز للحدّ، المفرط .

٤ـ أسعفْتني : قضيت حاجتي .

٥- الوجد : الحب .

٦- الرّمق : بقية الرُّوح.

المُضْنى : المثقل بالمرض .

المدنف : المريض المشرف على الموت .ويقصد غالباً بها المريضُ بالحُبَّ.

٧- المماطل : الذي يؤجل موعد الوفاء مرّة بعد أخرى .

٨- تشنيع :تقبيح .

المرجف : الكذاب .

٩-لا غرو : لاعجب .

شحَّتْ :بخلت .

سَحَّت : سالت .

الذُّرف : السائلة، الهاطلة من كثرة جريان الدمع.

١٠-النّوى : البُعد .

هوْل الموقف : يوم القيامة .

١١-عزَّ : قلَّ.

١٢-أهفُو : أميل .

تعلَّة :التعلل والتمتع .

شذاهُ :رائحته الزكية .

تشوُّفي : تطلّعي .

١٣- جوانحي: اضلاعي وهنا المقصود مشاعره، وعواطفه القلبية بين الجوانح.

التعليق النقدي

يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عمّا يُقاسيه من تباريح الهوى، ومن صدود حبيبه عنه، فقلبه يخبره أن هذا الحبيب -الذي يفديه بروحه وقلبه - سيكون سبباً في إهلاكه وإفنائه، وهو مع هذا يرى أنه مُقصرّ في حقّه أو أنّ يبذل في سبيله روحه وكيانه، وأنه حقيق بالوفاء معروف به .

وهو لايملك من أموره سوى روحهِ التي يرى بذلها في مذبح الحب ليس إفراطاً في ذلك أو تجاوزاً للحدود، فإنْ رضي هذا المحبوب فسيبعث في قلبه الاطمئنان، وفي نفسه الرِّضا، وإلاّ فما أقسى الأمر، وأمرَّ الحال .

إنّ حُبَّه قد سَلبَ النوم من عينه، والعافية من جسمه، وليس له من عون في إبقاء مابقى من ذمائه[1] غيره، ولا مسعف في إسباغ الصّحة عليه سواه، مع بقاء الحب، وزوال الوصال، ونفاد الصبر، وغياب اللقاء وأنه ليطمع - بعد أنْ تعذّر اللقاء حقيقة- أن يزوره خيالهُ ويُلمّ به طيفه، فيرتاح إليه، ويبثه أحزانه وأشجانه، وليته لم يخيّب أمله فيه، ولم يفسد مايرجوه، أو يتوقعه منه .

وهذا السهر - الذي هو وليد هذا الحب الطاغي - ملازم أجفان عيونه لايريد مبارحتها أو التخلي عنها، وشهيد هذه النجوم المستقرة في مواضعها، فلتُسأل عنه وتخبر ولاعَجَبَ في أن تَرفُضَ الجفونُ النوم، وتَذرفٌ[2] الدموع الغزار فهذا هو سلطان الحبّ، وهذا هو ديدنه، غير أنَّ أفظع ماشهده، وأشد ما أفزعه وحلَّ به ماحدث في موقف الوداع، وهو الموقف الذي كثيراً مايُلقي في روُع[3] المحبين الرَّوع[4] والخوف واليأس، إنه في هوله وشدته أشبه بموقف القيامة .

(١) الذماء: بقية الروح في المذبوح وغيره. (٣) روُع: القلب، والذهن والعقل.

(٢) تذْرفٌ : تسيل . (٤) الرِّوع: الفزع .

ويقف الشاعر بعد هذا الحديث الذي شرح فيه مايكابده من آلام حبه، ويتلطف محبوبه المتمنع راجياً منه - بعد أنْ يئس من لقائه - أن يؤمله بوعد ولو كان ممطولاً، لأنه سيعيش في ظل هذا الوعد الذي لايتحقق، مخادعاً نفسه بأنه وصال حقاً، من حبيب مُبِرٍ به .

ويذهب الحبيب، ويبقى مُحبُهُ وحيداً يعاني الوجْدَ به، والشوق إليه والتطلع إلى أخباره، وليس له من ينبئه بذلك سوى هبّات النسيم المحملة بعبقه الدال عليه، التي يأمل أن تكون سبباً في إخماد أجيج النار المُستعرة بين جوانحه، وإن كان يحب ويأمل أن لايكون بمقدورها فعل ذلك .

تُصّورُ الأبياتُ الغزلية هذه -التي صرف الشاعر الخطاب فيها إلى المذكر تصويراً واضحاً ودقيقاً - حال المحب الذي يجفوه حبيبه ويمطل وعده ويضنّ عليه بالوصال.لقد ذكر الشاعر كلّ ماينتاب المحبين من الآلام والأحزان والسهر والقلق، والنحول والأمل، والتعطف والتلطف، وكلّ مايبدر مِن الحبيب، من تمنّع ووعود، وتسويف وقسوة وقلّة مبالاة ، ولقد أحسن ابن الفارض شرح ذلك كلّه، بعبارات سهلة واضحة مؤثرة، مختاراً لها كلّ لفظ رقيق مناسب لمثل هذا الفن . وقد نحا في أبياته منحى شعراء الغزل العفيف، وارتفع فيها عن الغزل المادي الذي كاد أن يطبع أكثر ما أثر للشعراء من غزل . وفي الأبيات من الإخبات [١] والخشوع كأن الشاعر يتهيب ويتحفظ حيال مناجاة حبيب ليس له مثيل لأنه متهيب من حبه للذات الإلهية، ولايجسر تأدباً من ذكرها، فالشاعر يرمز إلى حبِّه لأنه صوفي النزعة .

(١) الإخبات: الخشوع والتواضع .

واستعان الشاعر في إقامة عباراته، وبثّ عواطفه وتوضيح مراميه بفنون بديعية شتى ولكنه تهيأ له -بفضل قدرته الشعرية، ومرونته البيانية، وثقافته اللغوية - أن يضفي عليها من اللطف والخفة، حتى لتكاد تَخْفَى على القارئ .

فمن تلك الفنون الطباق كما في : (عرفت أم لم تعرف) و (لم أقض ويفي) و(أسعفتني ولم تسعف) (مانعي ومانحي)و(باقٍ وفان) و(شحَّت وسحَّت) و(المطل والوفاء) و(تنطفي وأن لاتنطفي).

ومنها الجناس كما في :

(لم اقْضِ ولم أقضِ)و (مانعي ومانحي) و (شحت وسحت) و (موقف التوديع وهول الموقف) .

كما اعتنى بالتنغيم الصّوتي كالتقسيم الذي جاء في عبارات بعض الأبيات فقد وازن بين عبارتي (يامانعي طيب المنام) و(مانحي ثوب السقام) في البيت الخامس كما وازن بين (فالوجد باقٍ) وبين (الصبرُ فانِ) و (الوُصال مماطل) (واللقاء مُسوفي) في البيت السابع .

والأبيات -كما ترى-ظاهرة الدلالة على أنها غزل مألوف كسائر ماعرف من شعر الغزل، وقد ذهب إلى مثل هذا بعض شُرَّاح الديوان، ولكن بعضاً آخر من الشُّرّاح ذهب إلى أنها رمز للحب الإلهي، باعتبار أنّ صاحبها شاعر صوفي، فعلى هذا تكون القصيدة رمزية .

أسئلة للمناقشة

١ـ هل وفقَ الشاعر في ترجمة إِحساسه وشعوره؟ وكيف ؟

٢ـ اتخذ ابن الفارض أسلوب الرمز عن حبِّه للذات الإلهية، أوضح ذلك .

٣ـ عبَّر الشاعر عن عواطفه ومعانيه وصوره الشعرية بعبارات اصطبغت بفنون البديع، أوضّح ذلك .

الكُتّاب / ابن المقفع

هو عبد الله بن المبارك، ينحدر من أصلٍ غير عربي، فهو مولى بني الأهتم التميميين بالبصرة، ولد بمدينة (جُور) وكان والده عاملاً على الخراج في العصر الأموي فاختلس بعض الأموال فضُرب ضرباً شدياً حتّى تقفعت يده فلزمه هذا اللقب وعُرف به ابنه فيما بعد .

يبدو أنه تلقى أوائل تعليمه في مسقط رأسه وأنَّ أباه تعهد تثقيفه بما هيأ له من مؤدبين ومعلمين، وحين انتقل إلى البصرة استمد من تلك المدينة ثقافته العربية الإسلامية وهي يومئذ من أهم المراكز العلمية والأدبية، وذلك بما أخذه من العلماء والأدباء ومما استظهره من نصوص النثر والشعر .

وبعد تضلعه من هذه العلوم والمعارف،عمل كاتباً لعدد من الولاة في العهدين الأموي والعباسي .

نُعِتَ ابن المقفع برهافة الحسَّ ورجاحة العقل، وصدق الوفاء وكرم النفس، وقد رُويتْ في ذلك أخبار لايخلو بعضها من المبالغة أو التكلف. اشتهر ابن المقُفع بالترجمة عن الفارسية وكانت أكثر آثاره منها، وفي مقدمة تلك الآثار التي وصلت إلينا كتاب (كليلة ودمنة) الهندي الأصل وهو كتاب تدور قصصه على ألسنة الطير والبهائم ظاهره لهو للعامة وباطنه سياسة للخاصة . كان الكاتب يجمع في أسلوبه بين السهولة والجزالة (القوة)، ويؤثر الإيجاز والتركيز في العبارة، ويحفل بترتيب الأفكار وتنسيقها، ويكثر من الأمثال والحكم، ويزهد في الزخرفة اللفظية، من سجع وغيره توفاه الله عام (١٤٢هـ) .

من آثاره المطبوعة :

١ـ الأدب الصغير .

٢ـ الأدب الكبير .

٣ـ كليلة ودمنة .

جاء في كتاب (كليلة ودمنة):

(للدرس فقط)

((قالَ كَليلَةُ : زعمُوا[١] أنَّ قِرداً رَأى نَجّاراً يَشُق خَشَبَةً على وتدينِ[٢] راكِباً عليها كالأسوارِ[٣] على الفرس، وكُلَّما شَقَّ منها ذِراعاً أدخَلَ فيهِ وَتداً : وأنَّ النَجّارَ قامَ لِبعضْ شأنهِ[٤] فانطلقَ القِردُ يَتَكلَّف مِن ذلك مَا ليسَ من صنَاعتِه، فركب الخشبةَ وَوَجهُهُ قِبَلَ[٥] ذلك الوَتدِ، وتدلى ذَنَبُه في الشِقّ، فلما نَزَعَ[٦] الوَتَد انضمت الخَشبةَ[٧] على ذَنَبِه، فخرّ مغشياً عليه .وجاء النَّجارُ فكان ما لقي منه مِن الضَّربِ أشدَّ مِما مَرَّ أضعافاً كَثِيرةً)) .

اللغـــــــة

١ـ زعمُوا : الزعم القول من غير التحقق من صحته .

٢ـ الوتد : ما أُثبت في الأرض أو الحائط من خشب .

٣ـ الأسوار: الثابت على ظهر الفَرَس .

٤ـ الشأن: الحال والأمر والحاجة.

٥ـ قِبل: جهة أو ناحية .

٦ـ نزع : قلَعَ وجذَب .

٧ـ انضمت: اجتمعت، انضمَّ الشيء : اجتمع بعضه إلى بعض .

أسئلة للمناقشة

١ـ بم أشتهر ابن المقفع ؟

٢ـ ماهي مميزات اسلوب ابن المقفع ؟

٣ـ ما المغزى العام من القصة ؟

التعليق النقدي

يحكي النَّصُ عن أنَّ أحد القرود رأى نجاراً يمارس عمله الخاص به وهو شق خشبة، وقد امتطاها وهيمن عليها، وكان يستعين لتذليل عمله وإنجازه بوتدين، فكان يضع واحداً منها بعد أن ينتهي من شق جزء منها، وحدثَ أن ذهب النجار لقضاء حاجة عرضت له، فانتهز القرد هذه الفرصة السانحة وراح يقلّد عمل النجار، ووجهه نحو الوتد، فتدلى ذنبه في شق الخشبة فلما قلعَ الوتد ـ ولم يفطن إلى ماسيحدث ـ انضمت الخشبة على ذنبه، فسقط مغمياً عليه فاقداً وَعْيَهُ .

إن القصة تحثُّ الانسان على ألا يتدخل في ما لا يعلم، وأن يعرف مايعمله، وهي تهتم بالمعنى اكثر من اهتمامها بالصياغة، لذا جاءت ألفاظها سهلة يسيرة، وكانت قليلة الفنون البلاغية والبديعية كالتشبيه والاستعارة .

الجاحظ

هو عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ، لجحوظ عينيه، أي نتوؤهما، كناني النسب .

ولد بالبصرة في عائلة فقيرة ونشأ بها، وكان فطناً محباً للدراسة والتعليم فكان يختلف إلى الكُتّاب والمساجد، فيأخذ عن العلماء والأدباء، يتردد إلى المربد(١) فيشافه الأعراب ويأخذ عنهم اللغة والفصاحة، كما كان شغوفاً بالكتب وما تضمّهُ من علوم ومعارف حتى قيل إنه لم يقع بيده كتاب إلاّ استوفي قراءته أياً كان موضوعهُ، فكان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر والدراسة ومن أجل هذا كانت ثقافته، عامة شاملة، تأخذ من كلِّ شيء بطرف .

ورأى -بعد أن أحسّ بقدرته العلمية-مبارحة مسقط رأسه والتيمم صوب الحاضرة العباسية بغداد، حيثُ المالُ والجاهُ والشهرة، وتهيأ له أن يتصل بعدد من الخلفاء والوزراء والكُتّاب والقضاة الذين أعجبوا به وبأدبه فأحاطوه برعايتهم وأغدقوا عليه.

وتيسر له أن يزور بعض الأقاليم والمدن، توفي بالبصرة سنة (٢٥٥هـ) وقد أثار موُتُه حزناً في قلوب محبيه ومريديه ورثاه بعض الشُّعراء.

كان الجاحظ قصير القامة، دميم الوجه، ناتىء العينين، ولكنه إلى جانب هذه الصفات، كان يتحلى بكثير من حميد الخلال، وجليل الشمائل كالذكاء الحاد وسرعة الخاطر، والحفظ، والطرافة ولطف المعشر، وحضور النادرة، وخفة الروح.

---

(١) سوق في البصرة، كان الشعراء يجتمعون فيه وينشدون شعرهم .

وكان لثقافة الجاحظ الواسعة أثرها فيما أنتجه من آثار عديدة تناولت شتى صنوف العلم والمعرفة، التي كانت شائعة في عصره، حتى يمكن عَدهُ موسوعة علمية، فمنها ماكان في التاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات، ومنها ماكان في العصبية وأثر البيئة، أو في موضوعات شتى .

ويُعَدُّ الجاحظ صاحب مدرسة في النثر العربي في غُضون القرن الثالث الهجري، له أسلوبه الخاص الذي عُرف به وهو (أسلوب الجاحظ) الذي يتميز بعدد من الخَصائص والمميزات التي تظهر لكل من يأخذ نفسه بدراسة آثاره : كافتتاح الرسائل والكتب بالبسملات والحمدلات والتعويذات، والأخذ باختيار الألفاظ وملاءمتها للمعاني واجتناب الألفاظ العامية الساقطة والغريبة والوحشية، والاقتصاد جداً في استعمال الزخارف اللفظية والمعنوية والتقليل من التنقيح والتهذيب في الكتابة، والميل إلى الاستطراد والاسهاب، والاقتباس من آي التنزيل العظيم والحديث النبوي الشريف والأمثال والشعر، واقتناص الطّرف والنوادر لبعث النشاط والاستمرار في النفوس والتصوير البارع والوصف الحاذق إلى غير ذلك.

من آثاره المطبوعة :

١ـ كتاب الحيوان .

٢ـ كتاب البيان والتبيين.

٣ـ البخلاء .

٤ـ رسالة التربيع والتدوير.

٥ـ رسائل الجاحظ .

قال الجاحظ في كتاب الحيوان، على لسان صاحب ديك يذم الكلب :

(للدرس فقط)

قالَ صاحبُ الديك: إنْ أطعمَه اللصُّ بالنهارِ كِسرةَ خبزٍ خلاّه، ودار حولَه ليلاً فهوَ في هذا الوجهِ مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ[1]، وَهو مع ذلك أسمَجُ[2] الخلقِ صوتاً، وأحمق الخلقِ يقظةً وَنوماً، ينام النهارَ كلَّه على نفسِ الجادَّة[3] وعلى طريقِ الحوافرِ، وفي كلِّ سوق وملتقى طريقٍ ... وقدْ سَهِرَ الليل كلَّه بالصِياحِ والصَّخَب، والنَّصَب[4] والتَعَبِ، والغَيظ والغضَب، وبالمجيءِ وَالذَّهابِ، فيركبُه مِن حبِّ النومِ على حسبِ حاجته إليه، فإنْ وَطِئَتْه[5] دابّةٌ فأسوأُ الخلقِ جزعاً،[6] وألأَمُهُ لؤماً، واكثره نُباحاً وعُواءً، فإن سَلِمَ وَلَم تطأه دابة ولا وطِئَه إنسان فليستْ تتم له السلامةُ لأنَّه في حالِ مُتَوقعٍ للبليةِ، ومُتَوَقّعُ البليةِ في بلية فإن سلمَ فليس على ظهرها مبتلىً أسوأ حالاً منه، لأنّه أسوؤهم جزعاً. وأقلهم صبراً، لأنَّه الجاني ذلك على نفسِهِ .

اللغة

١ـ السُّحت: الكسب الحرام .

٢ـ سمج: قبيح، غير مهذب .

٣ـ الجادّة: الطريق .

٤ـالنَّصَب: التعب .

٥ـ وَطِئَ: داس بقدمه .

٦ـ الجزع: قلة الصبر وانعدامِه.

التعليق النقدي

يعد كتاب الحيوان للجاحظ من أقدم كتب الحيوان بالعربية قدمه الى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكافأه عليه خمسة الآف دينار، وهو يختلف عن كتب الحيوان المعروفة بأنه يشتمل على وصف طبائع الحيوانات من ناحية علاقتها بالناس ويتخلل ذلك فوائد أدبية واجتماعية وتاريخية .

والنَّص الذي أوردناه يتضمن مناظرةً وضعها الجاحظ على لسان شخصين، الأول صاحب ديك والآخر صاحب كلب، يفاضل كل شخص منهما صاحبه بفضائل ماعنده من الحيوان ويذكر فوائده ونافع خصاله وجميل طباعه، ويذكر معائب ماعند صاحبه ومساوئه، بعبارة بينة فصيحة ليس فيها التواء ولا تكلف ولاصنعة لفظية أو بلاغية، إلا ما جاءت عفواً دون إجهاد فكر ولا تَصنُّع، فمما ورد من السجع قوله: (بالصياح والصخب، والنصب والتعب، والغيظ والغضب)، وهذه ميزة خاصة بكتابات الجاحظ، فهو لايحفل بالمحسنات اللفظية والبديعية، ولايكلف نفسه عناء التنقيب عنها، لأن غايته الفكرة لا اللفظ .

والجاحظ في أثناء كلامه يستعين بآي القران الكريم والحديث النبوي الشريف ومأثور العرب من شعر ونثر، كما يستعين بمعارف الأمم كاليونان والرومان والفرس والهنود مع الرجوع الى التجربة والملاحظة وينتقل في أثناء حديثهِ من موضوع لآخر ثم يعود إلى موضوعه الأول ترويحاً للقارئ ودفعاً للضجر والسأم والملل، وهو ما يسمى (بالاستطراد) .

أسئلة للمناقشة

١ـ ماالموضوع الذي دارت عليه مقالة الجاحظ ؟

٢ـ لمن رفع الجاحظ كتابه (الحيوان) ؟ وبم كوفئ عليه ؟

٣ـ لماذا لم يزين مقالته بالمحسنات اللفظية والبديعية ؟

٤ـ يتسم أسلوب الجاحظ بالاستطراد، فما الاستطراد ؟

ابن العميد

هو أبو الفضل محمد بن الحسين، والعميد لقب والده الذي كان كاتباً للسامانيين الذين كانت عادتهم تلقيب من يتولى ديوان الرسائل. التحق ابن العميد بدواوين البويهيين، فعمل عند ركن الدولة الحسن بن بويه، حتى أصبح وزيره الى ان توفاه الله ، كان ابن العميد عارفاً بعلوم مختلفة كالفلسفة والنجوم وقيادة الجيوش فضلاً عن نظم الشعر والترسّل والكتابة حتى سموه (الأستاذ) ، وكان يلقب بـ (الجاحظ الثاني) لبراعته في الكتابة .

أما أسلوبه في النثر فكان يضرب به المثل في البلاغة والفصاحة وحسن الترسّل، واليه المنتهى في الكتابة بلاغة وفصاحة مع جزالة الألفاظ وسلاستها وبراعة المعاني وحسن السبك .

قال عنه ابن الأثير (إنه من محاسن الدنيا، اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع، مع حسن خُلْق ولِين عِشرة وشجاعة تامة ومعرفة بأمور الحرب والمحاضرات) .

وقال فيه الثعالبي :(بُدِئَتْ الكتابة بعبد الحميد وخُتمِت بابن العميد) .

ومدحه عدد من شعراء عصره كالمتنبي وابن نُباته والصاحب بن عباد، قال فيه المتنبي يذكر مايجيد من معارف :

مَنْ مُبلغُ الأعرابَ أنّي بعدَهــم	شـاهدت رسطاليسَ والإسكندرا
وسمعتُ بطليموسَ دارسَ كتبهِ	مـتملّكاً متبدّيـاً متحضّـــرا
ولقيت كل الفاضلين كأنّمـــا	ردّ الالــهُ نفوسَــهم والأعصُرا

فالمتنبي يقول إنه حين لقيه شاهد فيه عِلمَ أولئك العلماء المشاهير. توفي ابن العميد في همذان سنة (٣٦٠ هـ) .

ومن كتاب لابن العميد عن ركن الدولة إلى أحد الخارجين عليه يقول فيه:

(للحفظ من: كتابي وأنا - يُرْعى لك)

((كتابي وأنا مترجحٌ بين طمعٍ فيكَ، ويأسٍ منك، وإقبالٍ عليكَ وإعراضٍ[١] عنك، فإنك تُدِلُّ[٢] بسابقِ حُرْمَةٍ، وتَمُتُّ[٣] بسالفِ خدمةٍ، أيسرُها يوجبُ رعايةً ويقتضي محافظةً وعِناية، ثُم تشفعُهما[٤] بحادثِ غُلُولٍ وخيانة، وتتبعُهما بآنَفِ[٥] خلافٍ ومعصية، وأدنى ذلكَ يُحْبِطُ أعمالَك، ويمحق كلَّ ما يُرْعى لك .

لاجرم[٦] أني وقفتُ بينَ ميلٍ اليكَ وميلٍ عليكَ أُقَدّمُ رجلاً لِصَدِّمكَ، وأُؤَخِرُ أخرى عنْ قصدِكَ، وأبسطُ يداً لاصطلامِكَ واجتياحك، وَأثني ثانيةً لاستبقائكْ واستصلاحِكَ وَأتوقفُ عنْ امتثالِ بعضِ المأمورِ فيك ضَنّاً[٧] بالنعمةِ عندَك، ومنافسةً في الصَّنيعة[٨] لديكَ وتأميلاً لفَيْئتكَ[٩] وانصرافِكَ ورجاءً لمراجعتِك وانعطافك، فقدْ[١٠] يَغرِبُ العقلُ[١١] ثم يؤوبُ، ويعزُبُ[١٢] اللبُّ ثم يثوبُ، ويذهبُ[١٣] الحزمُ ثمّ يَعود، ويفسدُ العزمُ ثم يصْلُح ويُضاعُ الرأيُ ثُمّ يُستدرك ويسكرُ المرْءُ ثمَّ يصحو، ويَكدرُ الماءُ ثُمَّ يَصفو، وكلُّ ضيقةٍ فإلى رخاء، وكلُّ غَمرةٍ[١٤] فإلى انجلاءٍ ، وكما أنّك أتيتَ مِنْ إساءتِكَ بما لَمْ تحتسبْه أولياؤك فلا بدعَ أنْ تأتيَ مِنْ إحسانِكَ بما لا ترتقبُهُ أعداؤكَ .

وكما استمرتْ بِكَ الغَفلَةُ حتى رَ كِبْتَ مار كبتَ و اخترْتَ ما اخْترتَ، فلا عجبَ أن تنتبهَ انتباهَةَ تُبْصِر فيها قُبْحَ ما صنعتَ وسوء ما آثرتَ، وَسَأُقيمُ على رسمي في الإبقاءِ وَالمماطلةِ ماصلُح، وعلى الاستيناءِ[١٥] والمطاولةِ ما أمكنَ طمعاً في إنابتكَ[١٦]، وتحكيماً لحُسْنِ الظنّ بك)).

اللغة :

١ـ إعراض: صدّ وابتعاد .

٢ـ تُدِلّ: تتفضل، ومنه الدلال .

٣ـ السالف: السابق .

٤ـ شفع: ثَنّى وأتبع .

٥ـ آنف: جديد، مستأنف.

٦ـ لاجرم: حقاً.

٧ـ ضنّاً: بخلاً .

٨ـ الصنيعة: اليد والفضل .

٩ـ الفيء: الرجوع والعود .

١٠ـ الانعطاف: الميْل .

١١ـ يغرب: يبتعد .

١٢ـ يعزب: يسهو ويبتعد .

١٣ـ يثوب: يعود .

١٤ـ الغمرة: الجلبة .

١٥ـ الاستيناء: التمهل والتباطؤ .

١٦ـ الانابة: العودة .

التعليق النقدي

هذه رسالة كتبها ابن العميد على لسان ركن الدولة البويهي إلى أحد الخارجين على الدولة، يلين بها قلبه ويدعوه إلى الطاعة، فهوفيه بين أمرين، طمعٍ ورجاءٍ، ويأسٍ وبعدٍ في عودته الى صفّ الدولة، وهو الذي له حرمة لخدمته السابقة، وتلك توجب حقاً له ورعاية وعنايةً به، ويأسف لأنه شفع ذلك كله بعصيان وخيانة، وأيسر هذه الأشياء يحبط عمله، ويسقط مايحفظ له من رعاية .

وهو في حَيرة بين مدّ اليد إليه لرعايته والميل عليه، فتراه يتردد بين استبقائه واستصلاحه وبين قطعه وبتره، تأميلاً لعَودهِ لعله ينتبه ويتبصر، فيما أقدم عليه ضناً وحسن ظَنَّ به، وقد اعتنى ابن العميد في هذه الرسالة عنايةً بالغةً بانتقاء ألفاظه وحُسنِ صياغتها ورصف معانيها وجودة تركيبها، من دون أن تطغى تلك الصنعة اللفظية على معانيها، فمن المحسنات البديعية التزامه السجع، وهو التزام حرف واحد في نهاية كل جملتين. كحروف الروي في الشعر، وراعى في ذلك الجناس في فواصل السجع، كما في قوله اصطلامك واستصلاحك، ويثوب ويؤوب ... وغيرها اكثاره من الطباق والمقابلة، فهو حين يذكره بخدمته السالفة يشفعه بذكر موقفه الحاضر ليظهرعن طريقه سوء عمله ويقرنه بمقابلته بماضيه، فيقول: أُقدَّمُ رجلاً وأؤخر أخرى، ويقول: أبسط يداً لاصطلامك، تقابلها عبارة: أَثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، ومثل ذلك كثير، وهو لم يكتف بالسجع وحده بل زينه بالجناس والاستعارة والمحسنات البديعية بألوانها، حتّى بَدَتْ الرسالةُ لوحةً من محسنات بديعية، من دون تكلّف ولا ثقل ولا إملال وتلك صنعة أجاد فيها ابن العميد حتى أصبح فيها قدوةً ومنهجاً .

أسئلة للمناقشة

١ـ ما ميزات أسلوب ابن العميد في الكتابة ؟

٢ـ أجاد ابن العميد في علوم ومعارف عديدة،فهل أثرت تلك المعارف في نثره ؟ وكيف ؟

٣ـ في رسالة ابن العميد مقابلات كثيرة، استخرج اثنتين منها .

بديع الزمان الهمذاني

هو أحمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان. عربي الأصل، مُضريّ النسب ولد بهمذان سنة (٣٥٨هـ) ونشأ فيها وتتلمذ لبعض علماء العصر، وحفظ القرآن أَلَمَّ بتفسيره كما درس الفارسية وأتقنها، وبعد أن أمضى فترة في مسقط رأسه وجد في نفسه حاجة إلى مبارحتها فقصد عدّة مدن منها (نيسابور) فَالتقى بالخوارزمي الأديب المعروف، وجرت بينهما مناظرات مشهورة في فنون شتى، من حفظ ونظم ونثر وبديهة، تهيأ للبديع الفوز فيها والفلح(١) وكان لظفره هذا أثر كبير في ذيع صيته واشتهار أمره، ثم رأى أن يبارح نيسابور إلى غيرها، ومازال يتنقل حتّى انتهى به المطاف إلى مدينة (هراة) التي اتخذها دار قراره، حتّى دهمه الموت في سنة (٣٩٨هـ) كان البديع وسيماً خفيف الروح حسن العشرة، ظريفاً، ذا خلق رضي ونفس أبية، كما كان ذكي القريحة، سريع الخاطر، غزير الحفظ، وله في كل هذا أخبار عجيبة، وحكايات بديعة غريبة .كان البديع أحد من جمع بين فني الأدب شعره ونثره، وإن غلب عليه الثاني منهما فقد كان يتخذ من فنه الكتابي مجالاً لتضمين شعره وبثه في تضاعيفه، وهو شعرٌ لايقل جودةً في لغته ومعانيه وأخيلته من شعر سواه من الشُّعراء والكُتّاب أمثاله .

وفنه الكتابي ـ تمثله رسائله ومقاماته ـ يقرب كثيراً في خصائصه من الشعر المنثور، لقصر الجمل، والتزام السجع، وشيوع التشبيهات والمجازات والاستعارات، وفنون البديع ولاسيما الجناس. وتيسر للهمذاني ـلما رُزِقَه من موهبة فذة، وثقافة عميقة وملكة مقتدرة، ومحبة للإبداع والتفنن ـ أن يبتدع فناً جديداً في الأدب العربي وهو فن المقامات، ولأهمية هذا الفن يحسن بنا أن نتحدث عنه قليلاً قبل أن نسوق أنموذجاً منه.

(١) الفلح :الظفر.

المقامة

عبارة عن حكاية أشبه بالقصة القصيرة، تدور حول الكدية والتسول ابتدعها الهمذاني ووصل إلينا منها إحدى وخمسون مقامة،والغرض الأساس من ابتداعها تعليم الناشئة وشداة الأدب ضروباً من التعبيرات البليغة والألفاظ الرشيقة، وهي وإن كانت تدور في أغلبها على الكدية، فإنها عالجت كثيراً من أحوال المجتمع في ذلك العصر، فصورت جوانب الخير والشر فيه، كما تناولت وصف الأطعمة والأكسية واللهو في محيط ذلك المجتمع وصورت كذلك جوانب علمية وأدبية ونقدية لعدد من الشعراء والأدباء وأرباب الكلام .

ولمقامات الهمذاني راوٍ هو (عيسى بن هشام) وبطل هو(أبو الفتح الاسكندري)، وهما شخصيتان من ابتداع الهمذاني، لاحقيقة لهما في دنيا الواقع.

يظهر الأول غالباً بزيٍّ غني يجوب البلدان، ولا يستقر بمكان، أما الثاني، فيظهر بأزياء مختلفة، وأشكال متعددة، وفي الأماكن التي يرتادها الراوي في أغلب الاحيان. وهو في أكثر أحواله سائل شحاذ، يقنع بالنزر القليل من العطاء .

ويغلب على هذه المقامات روح الفكاهة التي كانت إحدى صفات الهمذاني المميزة واستهوت المقامة الأدباء فعارضوها ونسجوا على منوالها في مختلف العصور،ولعل أشهر معارضيها الذي بلغ الغاية في المهارة والإبداع هو الحريري .

وتطور فن المقامات بعد ذلك فلم يعد مقتصراً على الكدية فكتبت مقامات في موضوعات أخرى كالزهد والمواعظ والوصف كمقامات الزمخشري ومقامات ابن الجوزي ومقامات السيوطي وغيرها. وانتقل هذا الفن إلى الأندلس، وسيرد الحديث عنه في محله؛ ومن آثار بديع الزمان المطبوعة :

١ـ المقامات .

٢ـ رسائل بديع الزمان .

٣ـ ديوان بديع الزمان.

المقامة البغدادية

حدثنا عيسى بنُ هشام قال: (للحفظ:٦ أسطر)

«اشتهيتُ الأزاذَ[(١)]، وأنا ببغداذَ[(٢)]، وليس معي عَقْدٌ[(٣)] على نَقْدٍ، فخرجْتُ أنتهزُ[(٤)] محالهُ[(٥)] حتى أحلّني الكرخ؛ فإذا أنا بِسواديٍ[(٦)] يَسُوقُ بالجهد حِمارهُ، وَيُطَرِّفُ بالعقد إزارهُ[(٧)]، فقلتُ :ظَفِرْنا والله بصيدٍ[(٨)]، وحياك الله أبا زيد، من أينَ أقبلْتَ؟ وأينَ نزلْتَ؟ ومتى وافيتَ؟ وهَلُمَّ إلى البيتِ، فقال السَّواديُّ: لستُ بأبي زيدٍ، ولكني أبو عُبَيْدٍ[(٩)] فقلت :نعم لعنَ الله الشيطانَ، وأبعد النسيان، أنسانيك، طُولُ العهدِ، واتصالُ البُعدِ، فكيفَ حالُ أبيك؟ أشابٌ كَعهدي؟ أم شاب بَعْدي؟ فقال: قد نبتَ الربيع على دِمْنَتهِ[(١٠)] وأرجو أن يُصيرهُ الله إلى جَنتَه، فقلت: إنّا لله وإنا إليه راجعون ولا حَوْل ولاقُوةَ إلا بالله العلي العظيم. ومَدَدْتُ يد البِدار[(١١)]، إلى الصدارِ[(١٢)]، أُريدُ تمزيقهُ، فقبضَ السَّواديّ على خصري بجمعهِ[(١٣)] وقال: نَشَدتُك الله لا مزّقتهُ، فقلتُ: هَلُمَّ إلى البيتِ نُصِبْ غداءً[(١٤)]، أو إلى السُوقِ نشترِ شواءً[(١٥)] والسوق أقربُ، وطَعامهُ أطيبُ، فاستفزته[(١٦)] حُمَةُ[(١٧)] القَرَم[(١٨)]، وعطفتهُ عاطفةُ اللقَمِ[(١٩)]، وطَمِعَ، ولم يعلم أنه وقع .ثم أتينا شَوّاءً يتقاطر شواؤهُ عرقاً، وتتسايلُ جُوذاباته[(٢٠)] مَرَقاً[(٢١)]، فقلتُ: أفرِزْ لأبي زيدٍ من هذا الشَّوّاء، ثُمَّ زِنْ له من تلك الحَلْواء واختر له من تلك الأطباق، وانضد[(٢٢)] عليها أوراق الرُّقاقِ[(٢٣)]، ورُشْ عليه شيئاً من السُمَّاقِ[(٢٤)] ليأكُله أبو زيدٍ هنياً، فانحنى الشَّوّاء بساطوره[(٢٥)]، على زُبدة تنُّوره، فجعلها كالكُحلِ سحقاً وكالطَّحن دقاً ثم جلس وجلست، ولا يئس ولايئست، حتى استوفينا وقلتُ لصاحبِ الحَلْوى: زِنْ لأبي زيد من اللُّوزِيْنَج[(٢٦)] رطلينِ[(٢٧)] فهو أجرى في[(٢٨)] الحُلوقِ، وأمضى في[(٢٩)] العُروق ولْيكنْ ليليّ العمر[(٣٠)]، يومي النشر[(٣١)]، رقيق القشر، كثيف الحشو لؤلؤي الدهن كوكبي اللون. قال: فوزنهُ ثم قعد وقعدتُ، وجرَّد وجرَّدتُ[(٣٢)]، حتىّ استوفيناهُ، ثُمَّ قلتُ: يا أبا زيد ما

أحوجنا إلى ماءٍ يُشعشعُ[٣٣] بالثلج ليقْمعَ[٣٤] هذه الصَّارَّة[٣٥] ويفثأ[٣٦] هذه اللُقم الحارَّة. اجلس يا أبا زيد حتى آتيك بِسقّاءٍ يأتيك بشربة ماء، ثم خرجتُ وجلستُ بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنعُ، فلما أبطأتُ عليه قام السَّواديُّ إلى حمارهِ، فاعتلق الشوَّاءُ بإزارهِ وقال: أينَ ثَمَنُ ما أكلتَ، فقال أبو زيد: أكلتهُ ضيفاً، فَلَكمهُ لكمةً، وثَنَّى عليه بلَطمة ثم قال الشوَّاء: هاك[٣٧]، ومتى دعوناك، زِنْ...عشرين[٣٨] فَجَعَلَ السَّواديُّ يبكي ويُحلُّ عقدهُ[٣٩] بأسنانهِ ويقول.

كم قلتُ لِذاكَ القُريدِ[٤٠]، أنا أبو عُبيدٍ، وهوَ يقولُ، أنت أبو زيدٍ فأنشدتُ:

إعْملْ لِرزقكَ كُلَّ آلـه	لاَتقْعُدَنَّ بِكلَّ حالـــــــهْ
وانـهضْ بِكُلّ عظيمة	فالمرءُ يَعْجزُ لا محالة

اللغة

١ـ الأزاذ : نوع من التمر الجيد.

٢ـ بغداذ: لغة في بغداد.

٣ـ العقد: الوعاء أو الكيس.

٤ـ انتهز: التمس.

٥ـ المحالّ: جمع مَحِلّ، الموضع أو المكان.

٦ـ السوادي: القروي من أهل السواد، وسط العراق.

٧ـ الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

يطرّف الإزار: يرد أحد طرفيه على الآخر .

٨ـ الصيد: المراد به هنا القروي.

٩ـ هلم : تعال.

١٠ـ الدمنة: آثار الدار بعد ذهاب أهلها وخرابها.

١١- البِدار: المسارعة.
١٢- الصدار: ثوب يغطي به الصدر.
١٣- جمع الكفّ : قبضتهُ.
١٤- نُصبْ غداءً : نتاول منه.
١٥- الشواء : المشوي من اللحم .
١٦- استفزته : استخفته .
١٧- الحمة : الشدة .
١٨- القرم : اشتداد الشهوة الى اكل اللحم .
١٩- اللقم : الاكل السريع .
٢٠- الجوذابات (جمع جوذابة): خبز التنور .
٢١- المرق : الماء اغلي فيه اللحم .
٢٢- انضد : ضُمَّ وصُفَّ .
٢٣- الرقاق : الخبز الرقيق .
٢٤- السَّماق : حب احمر صغير حامض يتخذ تابلاً .
٢٥- الساطور : آلة للجزار يقطع بها اللحم .
٢٦- اللوزينج : الحلوى ، يشبه القطائف يسقي بدهن اللوز .
٢٧- الرطل : معيار يوزن به أو يكال .
٢٨- أمضى : أشد سرياناً .
٢٩- اجرى : امضى سيراً .
٣٠- ليلىّ العمر : أي صنع بالليل .
٣١- يومي النشر : أي نشر من مصنعه بالنهار .
٣٢- جَردَ : اخرج يدخ من ثيابه .
٣٣- يشعشع : يمزج .
٣٤- الصّارة : العطش .
٣٥- يقمع : يقهر ويدفع .
٣٦- يفثأ : يسكن .
٣٧- هاك : خذّ .
٣٨- زن عشرين : اعطِ زنة عشرين درهماً .
٣٩- عقده : ماله المعقود أي كيس نقوده .
٤٠- القُريد : تصغير قرد .

التعليق النقدي

تتحدث هذه المقامة عن التحايل الذي يعمد إليه بعضهم وهو هنا الرّاوي عيسى ابن هاشم وليس بطل المقامة المعروف بالاسكندريّ - إذْ ينتهز الفرصة السانحة والشخص المناسب الذي تغلب عليه سلامة النية وبساطة التفكير .

ووجد الرّاوي ماكان ينشدهُ في شخصية القروي الذي رآه في أحد محال بغداد متجولاً فتظاهر بقديم معرفته له ولأبيه، وأظهر من الترحاب به والاشتياق إلى والده- الذي زعم أنه تربطه به وشيجة صداقة قديمة - من غير أن يزيد عليها، وحين علم أن والد هذا القرويّ قد مات - منذ زمن بعيد، تظاهر بالحزن العميق عليه، والأسف الشديد لوفاته، فعمد إلى ثيابه يريد تمزيقها، لولا منع القرويّ وحيلولته دون ذلك . وحين اطمأن الراوي إلى أنّ ما فعله وتظاهر به قد جعل ذلك القرويّ يُصَدِّقُ أن هذا الرجل يعرفه حقّ المعرفة، وأنْ لا سبيل إلى الشك فيه، استغل الفرصة السانحة فدعاه إلى إضافته في بيته، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك مُفَضّلاً أن يكون موضع قِراه[1] السوق، بحجة قربه وطيب طعامه.

وبعد أن تناولا طعاماً شهياً دسماً، وحلوى ذات نكهة وطعم لذيذ اقترح الرّاوي أن يُطفئ ما يحسان به من حرارة، وما يشعران به من ظمأ بماء قَراحٍ[2] خَصِرٍ[3] فقام ليأتي بذلك.

لكنه انتحى زاوية، وأخذ يراقب ما سيحصل لهذا القرويّ على أيدي ذوي الطعام والحلوى، وحين طال إياب الرّاوي وقطع الأمل من رجوعه، نهض القروي، يريد مغادرة المكان فإذا به يطالب بثمن ما أكله، وحين ادعى أنَّهُ كان ضيفاً انهالت عليه

(١) القِرى: ما يقدم إلى الضيف.
(٢) القراح من كلّ شيء: الخالص، ويقال: ماء قراح.
(٣) خَصِر: بارد.

الضربات واللكمات من كُلّ جهة، وهو يصيح ويستغيث، لاعناً ذلك الخَبُّ[1] المخادع وناعتاً إياه بالقُريد، ولم يُخلَّ سبيله إلا بعد أن نَقّدَ أصحاب الطّعام ثمن ما أكله وتناوله.

وتنتهي المقامة ببيتين من الشعر للراوي يدعو إلى وجوب الاستعانة بكل وسيلة ممكنة للحصول على الرزق والقوت.

واضح أنّ الغاية من إنشاء هذه المقامة والمقامات الأخرى -كما تقدم -تعليم الناشئة أمثلة مجتباة من التعبيرات البليغة، والألفاظ المنتقاة الرشيقة.

وعباراته سهلة كلّها، بينة، لا التواء فيها، ولا تعقيد ولا تقديم ولا تأخير، وهي كلها بليغة اعتنى في اصطفائها، وجهد أنْ يصوغها أجمل صياغة.

وهذه العبارات على وضوحها كانت تؤدى بجمل قصيرة تنتهي بكلمات مسجوعة حتى لتبدو- في أكثر الاحيان -وكأنها شعر أو قريب منه كقوله:

(كالكحل سحقاً، وكالطحن دقاً) و (ثم جلس وجلست ولا يئس ولا يئست)

و (فهو أجرى في الحلوق وأمضى في العروق)، و (ليكن ليليَّ العمر، يوميّ النشر رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤيّ الدهن كوكبيّ اللون).

وهي محبّرة بأفانين أخرى من البديع خاصة الجناس الذي كان البديع مولعاً به في عامة نثره، ومن أمثلته:

(صيد وزيد) و(العهد والبعد)، و(شابٌّ وشابَ)، و(البدار والصدار)... وهو جناس خفيف لايكاد يلمح إلا بصعوبة وتروٍّ.والرّوح القصصي في هذه المقامة، على الرغم من أنه لم يكن مقصوداً لذاته، واضح كذلك، فقد استطاع البديع أن يبعث في نفس القارئ ما يزجيه إلى مواصلة القراءة، ويشده إلى محاولة الوقوف على خاتمتها.

(١) الخب: الخداع الغشاش.

ولا تخلو المقامة من الرُّوح الفكاهيّ الذي يسري بين أعطافها. وهي تعكس لنا حالة اجتماعية ربما كانت سارية في محيط ذلك المجتمع، كما تبين لنا لوناً من ألوان الطعام الذي كان شائعاً في ذلك العصر وهو الشواء وكذلك بعض أنواع الحلوى كان يتخذ بعد وجبات الطعام الدسمة كاللوزينج، وهما ما زالا معروفين في العراق حتى الآن .كما تظهر شيوع استعمال الماء الخصر المثلج لدى أفراد المجتمع أيضاً .

أسئلة للمناقشة

١ـ ما المقامة ؟ما أهم ما امتازت به؟

٢ـ يمكن أن تُعدَّ المقامة بداية لنشوء الفن القصصي . أوضح ذلك .

٣ـ علل: جمع بديع الزمان الهمذاني فني الأدب (الشعر والنثر) في المقامة

انتهى الجزء الأول

الجزء الثاني

أثر الحروب الصليبية في الأدب

لقد كان للحروب الصليبية أثر واضح في الأدب، فقد كثر الأدباء الذين واكبوا هذه الحروب، كما كثر نتاجهم وغزر خلال هذه الحقبة العصيبة، التي تعرضت لها البلاد. وعلى الرغم من أن فنون الشعر كانت مألوفة ومعروفة .إذ جرى فيها الشعراء على سنن من تقدمهم :في المديح والفخر والرثاء والهجاء، والتصوف والألغاز والنظم التعليمي، فأنَّ الفن الحربي كان قد اتسع وكثر بسبب كثرة الحروب، وتوالي المعارك وكان هذا الفن الميدان الفسيح الذي انطلق فيه الشعراء مسجلين الأحداث الخطيرة ومصورين الملاحم الطاحنة، ومشيدين بالانتصارات الباهرة التي أحرزها الأبطال في ميادين القتال، داعين إلى وجوب الاستبسال ومقاومة العدو، ومكبرين روح البطولة والشهادة لما كان له أكبر الأثر في الحماسة والاندفاع والانتصار .

إنّ الخصائص الفنية لشعر هذا العصر قد ألمحنا إليها فيما تقدم عند حديثنا عن مميزات الشعر العباسي عامة فقد تراوح أسلوبه بين القوة والسهولة على وفق نوع الغرض الذي قيل فيه وقد يفرط أحياناً في السهولة الى درجة التدني إلى العامية ويكثر فيه شيوع المحسنات اللفظية أو الزينات البديعية، وهي سمة ظاهرة وطاغية في ذلك العصر مما يجعل بعضه لايخلو من الكلفة والثقل، وتسري في أعطاف فنونه ولاسيما مديح الأبطال ورثاؤهم ووصف المعارك حرارة العاطفة المشبوبة التي تبعث فيه الحيوية والقوة.

والنثر الذي هو صنو الشعر في مواكبة أحداث هذا العصر قد كثر كُتَّابه وتنوعت فنونه، وتعددت ألوانه، فكان منه نثر ديواني، ورسائل إخوانية وأدب سياسي، وأدب تأريخي، وأدب قصصي، وأدب شعبي، وأدب تأليفي.

وهو في أكثره امتداد لما كان عليه النثر في غضون العصور السابقة لهذا العصر.

امتاز هذا النثر بخصائص ميزته من سواه من نثر العصور السابقة له منها :

كثرة العناية بالمحسنات اللفظية والبديعية من جناس وطباق وتورية ومراعاة نظير والميل إلى الاقتباس وتضمين آي القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر.

وكان الاحتفال بالتجنيس الذي يُعدّ- في ذلك العصر- رأس البلاغة ، يستحوذ على عناية الكُتَّاب أكثر من سواه حتى بلغ ببعضهم أن يلتزمه في مؤلفاته.

لقد نهض النثر كصنوه الشعر بتسجيل الأحداث الخطيرة تسجيلاً دقيقاً، فكان أثره كبيراً في بث روح الحماسة والإقدام وفي الحث على مواصلة القتال، والاستنفار في سبيل درء الخطر عن البلاد والحضّ على الجهاد والتحرير.

الشعر
أُسامة بن منقذ

هو أسامة بن منقذ بن علي، شاعرٌ و فارس، ولد بمدينة (شيزر) الواقعة في الشمال الغربي لحماة سنة(٤٨٨ هـ) في أسرة ذات شأن معروف في العلم والأدب والشجاعة وتوارث الإمارة، نشأ في رعاية والده الذي غرس في نفسه الشجاعة والميل إلى الشدة والصرامة في مجابهة الحياة، كما زوده بعلوم العصر ومعارفه عن طريق العلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إلى إمارة العائلة، فكان لكل ذلك أثرهُ الكبير في مجرى حياة أُسامة العلمية، فقد عرف ببسالته ومشاركته في الكثير من أحداث العصر العسكرية، كما أسهم كثيراً في مجالي الأدب، شعره ونثره، بما نظمه وما ألفهُ وصنفه.

إن أكثر من سبب جعل أسامة لا يستقر بمكان واحد، فقد كان كثير التنقل والتردد بين المدن والامصار: كالموصل ودمشق ومصر وقد أُعجب به كثير من القادة الذين اشتهروا في ذلك العصر ممن كان لهم شرف المساهمة في تحرير الوطن من نير الاستعمار فقد صحبهم وشاركهم خوض المعارك الملحمية التي خاضتها الجيوش الإسلامية دفاعاً عن الحمى، وذوداً عن الحرمات والمقدسات، التي أبلى فيها أسامة بلاء حسناً، كما سجل كثيراً منها في شعره الحربي.

إنَّ حياة الكفاح والنضال ضد العدو لم تثن أُسامة عن مجال العلم الأدب، فقد تهيأ في غضون حياته الجهادية الطويلة هذه أن يقتطع جزءاً من الوقت يَخْلُد فيه إلى التأليف في مجالات الأدب المختلفة .

وكان في سفر، وعاد فوجد زلزالاً قد أصاب مدينته (شيزر) وأهلك جل أهله ودمرت ديارهم، فكتب في ذلك كتابه (المنازل والديار) ضمّنه ما قاله ومارواه لغيره في رثاء الديار وبكاء أهلها .

وانتهت حياته المفعمة بضروب البسالة والشجاعة، والحافلة بفنون الأدب بوفاته في دمشق سنة (٥٨٤هـ).

كان أُسامة ممن يجمع بين فني الأدب: الشعر والنثر والإجادة فيهما جميعاً، فقد أكثر من النظم في فنون الشعر المعروفة من غزل ووصف ومدح ورثاء وفخر وشكوى وقد احتفل بالشعر كثيراً، ورد إليه روحه الأصيلة المتمثلة بالبعد عن الزخرفة والصنعة وسما به نحو القوة والجلال والوقار، وَعُنِيَّ باستلهام الخواطر وتسلسلها يُساعده في كُلَّ ذلك موهبةٌ جيدةٌ، وحفظٌ غزيرٌ للأمثلة العالية من الشعر العربي، ولعل محفوظه الكثير هذا كان من أسباب ولعه بتضمين شعره شعر الآخرين، كما كان مغرماً بتهذيب شعره وتنقيحه على غرار ماكان عليه بعض القدامى، ومن أجل هذا قَلَّت فيه الهَنات أو العيوب التي يمكن أن يُؤاخذ عليها .

ولعل أهم ما يميز شعره الصور الحية الكثيرة للاحداث التي عايشها الشاعر في حياته الطويلة .

ولا تَقِلُّ جودة ما أُثِرَ له من نثر عن شعره، ولعله يُعَدُّ في طليعة من أسهموا في نشأة الترجمة الشخصية في الأدب العربي، يتضح هذا في كتابه (الاعتبار) الذي صور فيه بأمانة ودقة الحياة السياسية والاجتماعية التي عاصرها وشارك فيها .

من آثاره المطبوعة :

١ـ كتاب الاعتبار.

٢ـ لباب الآداب.

٣ـ المنازل والديار.

٤ـ البديع في نقد الشعر.

٥ـ ديوانه.

قال أُسامة من قصيدة طويلة يذكر فيها انتصارات المسلمين ويعدد أسماء قادة الفرنج الذين وقعوا في الأسر، وأسماء المدن والحصون التي استردها المسلمون من الصليبيين: (للدرس فقط)

أبى اللهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ
لِتَحيا بِنَا الدُّنيا ويَفْتخرَ الفَخْرُ
وتَخْدُمنَا الأيامُ فيما نَرومُهُ
وينقادُ طوْعاً في أزمتِّنا الدَّهرُ (١)
دِماءُ العِدا أشهَى من الرَّاحِ عِندنا
ووَقعُ المَواضِي فِيهُمُ النَّايُ والوَتْرُ (٢)
نواصِلهم وَصْلَ الحبيبِ وهُم عِداً
زيارتُهم يَنحطُّ عنا بِها الوِزرُ (٣)
وفي سِجننا ابنُ الفُنْشِ خَيرُ ملوكِهم
وإن لم يكُنْ خَيْرٌ لديهم ولابرَّ (٤)
أسرنْاه من حِصْنِ العَريمةِ راغماً
وقد قُتِلَتْ فرسانُهُ فَهمُ جُزْرُ (٥)
وَسَلْ عَنْهُم الوَادِي بإقليسَ إنّه
إلى اليومِ فيهِ من دِمائِهم غُدْرُ (٦)

هُمُ انـتـشـروا فيــهِ لِـردَّ رَعِـيلِنــا
فـمِـنْ تـربـه يـومَ الـمـعـادِ لــهـم نُـشْـرُ (٧)
ونَـحْـنُ أسرنا الجوْسَلينَ ولم يَكُـنْ
لِيخشَى من الأيــامِ نَـائِـبةً تَـعْــرُو (٨)
وكــانَ يَـظـنُّ الـغِـرُّ أنــا نَـبِـيعُــهُ
بـمـالٍ وكـمَ ظَـنٍّ بــه يَـهـلِـكُ الـغِــرُّ (٩)
وجـيـشٍ إذا لاقَـى الـعَـدُوَّ ظـنـنـتُـهم
أُسُودَ الشَّرى عنـتْ لَها الأُدمُ والعُفْرُ (١٠)
تَرى كُلَّ شهمٍ في الوَغَى مِثْل سَهْمِهِ
نـفُـوذاً فـمـا يَـثـنـيـهِ خَــوفٌ ولاكُـثْــرُ (١١)
هُمُ الاسدُ مِنْ بيضِ الصَّوارمِ والقَنَا
لَهُمْ في الوَغَى النّابُ الحديدَةُ والظفرُ (١٢)
يَرَوْنَ لَهم في القَتلِ خُلداً فكيفَ بالـ
لقـاءِ لِـقَـومٍ قَـتـلُـهم عِـنْـدَهُـم عُـمْــرُ (١٣)

اللغة

١ـ نرومه: نطلبه.

أزِمَّة : جمع زمام، وهو خيط يشدّ في حلقة ثم يشدّ إلى طرف المقود .

٢ـ الرَّاح: الخمر.

وقع المواضي: صوت السيوف الباترة.

٣ـ ينحط:، يسقط.

الوزْرُ: الذنب.

٤ـ ابنُ الفُنْش: أحد قادة الفرنج.

بِرّ: صالح.

٥- حِصْنِ العريمة : اسم موضع.

راغماً :ذليلاً مكرهاً.

جزر: مخفف جُزُر بضمتين، وهوجمع جزور وهي الناقة المجزورة،المذبوحة.

٦- إقليس: اسم موضع.

غُدرُ: جمع غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل .

٧- الرّعيل: الجماعة المتقدمة من الخيل.

المعاد: الحياة الأخرى، المرجع والمصير.

النشر، البعث، والأحياء.

٨- الجوسلين: أحد ملوك الفرنج.

يخشى :يخاف.

نائبة: كارثة.

تعرو: تلمُ، وتصيب.

٩-الغِر : الجاهل، المغفل.

١٠-الشَّرى : موضع كثير الأسود يقال، هم أُسد الشرى.

عنت: ظهرت واعترضت.

الأُدْم: من الظباء :المشربة بياضاً.

العفر: الأعفر من الظباء مايعلو بياضه حمرة.

١١-الشهم:الصبور على القيام بما حمل، السيد السديد الرأي.

الوغى: الحرب.

نفوذ: اختراق ومضاء.

١٢- الصوارم: السيوف القاطعة.

القنا : الرماح.

١٣- الخُلْد: الدوام والبقاء.

يبدأ النص بالحديث عن امتلاك ناصية الأمر، وحيازة النصر، مبيناً أن هذا من إرادة الله تعالى، لتدوم الحياة وتستمر، ويفخر الزمن ويتباهى، لتكون الأيام طيعة، والدهر منقاداً مذعناً ثم يتحدث عن أسباب هذا الظفر العظيم، والنصر المبين، فإذا بها ترجع إلى النفور إلى العدو، والجهاد في سبيل الله والوطن والعزوف عن الملاهي والملاذ إلى اشتياق لقاء الأعداء، في سوح الوغى، والالتذاذ بصليل السيوف القاطعة للرقاب عوضاً عن أنغام آلات الطرب والغناء. ويتحدث بعد ذلك عن نتائج هذا اللقاء بين المدافعين عن وطنهم والذائدين عن حرماتهم، وبين الغزاة الطامعين المستعمرين فإذا بالأعداء يندحرون، وتتناثر جثث قتلاهم في كل صقع، وتملأ دماؤهم كل منخفض وإذا بهم يفجؤون بما لم يكن في حسبانهم ولا في تقديرهم، واذا قادتهم وملوكهم بين قتيل وأسير، وحصونهم وقلاعهم تتهاوى وتتساقط. ثم يتحدث عن الجيش الذي كان له شرف الدفاع والنصر والانقاذ فيصفه بالشجاعة والإقدام والبسالة والمضي في ملاقاة العدوَّ، وقد تسلح أبناؤه بالايمان والصَّبر والتَّصميم على الظَّفر، فنذروا أرواحهم الطاهرة، ونفوسهم الأبية لهذا اليوم الحاسم، وكان رائدهم الذي يُزجيهم إلى خوض هذه المعامع، إيمانهم بأن الحياة الخالدة، والبقاء السرمدي في حسن الذكرالمتأتي من الفداء والبذل والجود بالروح والنفس. لقد ركز الشاعر تركيزاً جميلاً في البيتين الأولين المعنى العام الذي يمكن أن يسعى إليه النص كله، وهو الانتصار والظفر كما أفلح في إسناد هذا الى الله تعالى الذي هو أعلم بكلَّ شيءٍ ولم ينسَ أن يعللَ الاسناد ويبرزه، وأجاد في تصوير حالة المدافعين عن الوطن والحرمات: مَنْ تسلح بالإيمان وانشغالٍ بالجهاد، وشغف بلقاء العدو ومنازلته في ميادين القتال وابتعادٍ عن كلَّ ما من شأنه بعث الضَّعْفِ في النفوس، والخور في العزائم. ولا شك في أنَّ نعتهَ لقاءَ المجاهدين للاعداءِ بلقاء الأحبةِ، ينطوي على لفتةٍ فنيةٍ بديعةٍ لاشتمالها على تصوير عميق لما يضطرم في نفوس المجاهدين من حرارة اللقاء الذي لايماثله سوى لقاء الأحبة بعد طول الجفاءِ والغيابِ. كما أحسن في وصف حال العدوَّ بعد المنازلة،

وبعد انخذاله في سوح المعارك، وركز الحديث عنه واقتضبه، ولكنه تركيز واضح، واقتضاب غير مخل، يتضح في وصفه لجيش العدو الكثيف الذي جاء في مخيلته الفوز والظفر، وانتهى بالخذلان، والانحدار والتمزق والتفت الشاعر إلى الوادي الذي جرت فيه المعركة طالباً مساءلته عن مصير العدو، وعما آلت إليه دماؤه وجثث قتلاه .

وواضح أن حديث الشاعر عن العدو ونيَّاتِهِ وأهدافه ومصيره لا يخلو من السخرية والهزء والتنادر، ووصفه الجيش الذي قام بدحر العدو وصفاً شَدّدَ فيه على الشجاعة والإقدام وسرعة الحركة، وشبهه في كلَّ ذلك بالأُسودِ المعروفة بقوتها وبسالتها وجرأتها وهو تشبيه دأب عليه الشعراء قبل أُسامة، في أوصافهم ومدائحهم ولا شك في استحضاره تشبيه سرعة الجيش وانطلاقه خلف العدو بسرعة الأسودِ وشدة عدوها وراء ما ظهر أمامها من ظباء وغزلان لفتة فنية جميلة، لا تخلو من البراعة والجدة.على أن الشاعر قد أبدع كثيراً في خاتمة هذه الأبيات، فقد أودع قوله معنى جميلاً جداً، يكاد ينفرد به، بل نراه جديراً بأن يكون رائد كل مدافع عن وطنه ومحامٍ عن حرماته، فالشهادة في سبيل الوطن، ومقارعة العدو الغاشم هي الخلود السرمديَّ في جنات النعيم، وهي حسن الثناء والذكر في الدُّنيا، بل هي العمر كله.

أسئلة للمناقشة

١ـ ما الخصائص التي جاءت في شعر أسامة بن منقذ ؟

٢ـ وضح تصوير الشاعر حالة الدفاع عن الوطن والحرمات .

٣ـ علل:

أـ إجاد ة الشاعر نثراً وشعراً.

ب ـ عدم استقرار أسامة بن منقذ في مكان واحد.

جـ ـ قلة العيوب في شعر أسامة بن منقذ.

الأبيوردي

هو محمد بن أحمد بن محمد، ولد بـ (كوفن) إحدى المدن القريبة من أبيورد الواقعة في خراسان في أُسرة ذات جاه ونعيم، ونشأ في رعاية أُسرته وتثقف ثقافة واسعة، وأخذ عن كثير من العلماء في عصره، حتى غزر علمه، وتوسعت معرفته، وشهد له بالتضلع من أكثر علوم العصر، بل جعلته ثقافته الشاملة العميقة إماماً في كلّ علمٍ وفنٍ، متقناً اللغة والنحو والنسب والاخبار، وأمدته بيد باسطة في البلاغة والإنشاء كما كان أحد قراء أبيورد . ولم يقتصر الأبيوردي على تلقي العلوم والابداع فيها، بل شارك في التأليف أيضاً فخلف آثاراً ذُكِرَتْ اسماؤها في بعض مصنفات مَنْ ترجموا له.

قضى الأبيوردي ردحاً من الزمن في مسقط رأسه، ثم انتقل الى بغداد ومكث فيها مُقرباً من الخلفاء والوزراء، عشرين سنة، وتولى في غضون هذه الحقبة خزانة الكتب النظامية ، ثم غادر بغداد متنقلاً في خراسان حتى استقر به المقام في أصبهان حيث عُهِدَ إليه بولاية عمل كبير بقي فيه إلى أن توفي في سنة (٥٠٧هـ) قال الشعر منذ صباه، إلى أواخر أيامه، ولم يتخذه وسيلة للتكسب أو النيل من الاخرين، وانما اتجه به الى الخلفاء والوزراء حين تعرضت موارده للنهب والسلب .

إن ما وصل إلينا من شعره يُعدُ من أجود الشعر وأحسنه، وهو دليل بين على أصالة شاعرية صاحبه، لما امتاز به من سلامة التراكيب، وانتقاء اللفظ، وبلاغة التعبير، وقلة الاحتفال بالبديع، أو تكلفه، علماً بأن عصره كان عصرالعناية الفائقة بالبديع وفي شعره روح حماسية عربية فياضة فقد تعالت هتافاته الحماسية هذه في أغلب ما وصل إلينا من شعره، وهو ينطلق فيها معتمداً على أُسس رصينة من أرومته(١) العربية وأُسْرَتِهِ الكريمة، وخلقه الرَّفيع ومن أجل هذا كان الفخر والحماسة من أكثرما نظمه، وأحسن ما قاله، وله مع ذلك غزل كثير، رقيق ، جاء بعضه في مطالع بعض قصائده كما جاء بعضه منفرداً مستقلاً .

---

(١) الأرومة: الأصل والحسب.

من آثاره المطبوعة، ديوانه :

قال الأبيوردي لما استولى الفرنج على بيت المقدس في سنة (٤٩٢هـ)

(للدرس والحفظ :٨ أبيات)

مَزجنا دماءً بالدموع السَّواجِم … فَلَمْ يبقَ منا عرضَةٌ للمراجِم (١)

وشَرُّ سِلاحِ المَرْءِ دَمعٌ يُفيضُهُ … إذا الحَرْبُ شُبَّت نارُها بالصَّوارمِ

فَإيهاً بني الاسلام إنَّ وراءَكُم … وقِائعَ يُلحِقْنَ الذُّرى بالمناسِمِ (٢)

أتهويمةً في ظلِّ أمْنٍ وغِبطَةٍ … وعَيْشٍ كنُوَّارِ الخَميلة ناعِمِ (٣)

وكيف تَنامُ العْينُ مِلءَ جُفونِها … علىهبَواتٍ أيقظَتْ كُلَّ نائمِ (٤)

وإخوانُكم بالشَّامِ يُضحي مقيلُهُم … ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعمِ (٥)

تَسُومُهم الرومُ الهوانَ وانتم … تَجرون ذَيْلَ الخفض فِعْلَ المُسالمِ (٦)

وكَمْ من دِماءٍ قد أُبيحت ومن دُمى … تواري حَياءً حُسنَها بالمعاصمِ (٧)

بِحَيثُ السّيوفُ البيضُ مُحَمرةُ الظُّبا … وسُمْرُ العَوالي داميات اللَّهازمِ (٨)

وبينَ اختلاسِ الطعنِ والضرب وقفةٌ … تَظَلُّ لها الوِلدان شيبَ القَوادمِ (٩)

وتلكَ حُروبٌ منْ يَغِب عن غِمارِها … لِيَسلمَ يَقْرَعْ بَعْدَها سِنَّ نادمِ (١٠)

سَلَلْنَ بأيدي المُشركين قواضباً … سَتُغْمَدُ مِنْهُم في الطُّلى والجماجِمِ (١١)

يكادُ لَهُنَّ المُستَجِنُ بطيبة ... يُنادي بأعلى الصَّوتِ: يا آلَ هاشمِ (١٢)

أرى أُمَّتي لا يُشرِعونَ إلى العِدا ... رِماحَهم والدِّينُ واهِي الدعائمِ (١٣)

ويجتنبونَ النارَ خوفاً من الرَّدى ... ولا يَحْسبونَ العارَ ضربةَ لازمِ (١٤)

دعوناكم والحربُ ترنُو مُلِحّةً ... إلينا بالحاظِ النَّسورِ القَشَاعمِ (١٥)

تُراقبُ فينا غارة عربيةً ... تطيل عليها الرُّومُ عَضَّ الأباهمِ

اللغة

١ـ السواجم: الغزيرة، السائلة.

العرضة: عرضة للمراجم : مجال للظنون.

٢ـ إيْهاً: اسمُ فعلِ أمر للاستزادة من حديثٍ أو عملٍ ما.

الوقائع: الأحوال والأَحداث مفرده، وقعة.

الذُّرى: جمع ذروة، وذروة كل شيء : أعلاه.

المناسم: جمع منسم، وهو طرف خف البعير.

٣ـ التهويمة:النوم الخفيف أو الشعور بالحاجة إلى النوم .

الغبطة:حسن الحال والمسرة.

النُّوار: الزهر، واحدته نَوّارة .

الخميلة: الشجر المجتمع أو كل موضع كثر فيه النبات.

٤ـ الهَبوات: جمع هبوة : غبرة المعارك

٥ـ المقيل : القيلولة: أي النوم وسط النهار وموضع القيلولة .

المذاكي:الخيول.

القشاعم: جمع قشعم، النَّسْر الذكر العظيم.

٦ـ تسومهم: يوليه إياه ويزيده عليه .

الخفض: الدِّعة وسعة العيش.

٧ـ أُبيح : أحلّ وأطلق.

دمى:جمع دمية :الصورة المتمثلة من العاج وغيره يضرب بها المثل في الحسن والمراد هنا (النساء).

المعاصم:جمع معصم، وهو موضع السوار من اليد.

٨ـ الظُبا: جمع ظُبة وهو حدّ السيف أو السنان.

سمر العوالي: الرِّماح .

اللهازم: جمع لهزم وهو كلّ شيء قاطع مع سنان أو سيف.

٩ـ اختلاس: انتهاز ومخاتلة.

وقفة:سكون وترقب.

القوادم: المراد بها هنا الشعر.

١٠ـالغمار:الشدائد والمكاره جمع غمرة.

يقرع بعدها سِنَّ :يصكه ندماً.

١١ـ القواضب :السيوف اللطيفة الرقيقة جمع قاضب.

ستُغْمد: ستُدخَل.

الطّلى: الأعناق أو أصولها جمع طُلاة.

١٢ـ المستجن: المستتر ويريد الرسول (صلّى الله عليهِ وآلهِ وسَلَّم).

طيبة : مدينة الرسول (صلّى الله عليهِ وآلهِ وسَلَّم).

١٣ـ يشرعون رماحهم: يُسددونها.

واهٍ: ضعيف مُسْتَرخٍ.

الدعائم: جمع دعامة ، وهو عمود البيت الذي يقوم عليه .

١٤ـ ضربة لازم: ملازم ، ثابت

١٥ـ ترنو: تديم النظر في سكون طَرْف.

ملحة: مواظبة، ملحفة.

التعليق النقدي

في هذه الأبيات يستحث الشاعر-الذي دهمه الأمر، وافظعه الخطب-العرب والمسلمين على رد العدوان والقصاص من العدو الغازي الذي دَنَّس بوضر[1] احتلالهِ حرمات البلد الآمن المقدس، فصور هذه المأساة الحزينة التي حَلّت بالعرب والمسلمين ونالت منهم، ما انبجست الدُّموع غزيرة يخالطها الدم، لهول ما وقع، وعظيم ما حدث غير أنَّ الدموع وحدها لايسعها حلّ مشكل، أو إقامة مِعْوَج، بل إنَّ أضعف السلاح ، وأكثره خطراً على أهله هو الاكتفاء بسح الدُّموع إذا ما استعر أوار[2] الحرب واشتدّ قرع السيوف، وأنتم أيها المسلمون تنتظركم إذا ما تقاعستم وتخاذلتم أهوال عظيمة وأحداث جسيمة تقلب كل شيء رأساً على عقب، وهل يجوز في حكم الشرع والحقِّ والوطنية والحرمات الاستكانة إلى التراخي والإخلاد إلى الدعة والاطمئنان والعيش الرَّخي الرغيد في مثل هذه الاحوال العصيبة الضاغطة ؟وإنه لأمر عجاب أن يستطاع نوم في جنب هذه الاهوال المجلجلة التي أفزعت كل آمن ونَبَهَّتْ كلّ راقد .

إنّ العدوّ الغادر قد فعل الافاعيل بإخوان لكم أصبحوا بين حالين، إما أن يمتطوا صهوات جيادهم للذود عن الحياض، وإما أن يصبحوا طعاماً سائغاً للعقبان والنسور، وقد ذاقوا على أيدي هؤلاء العُتاة كل ألوان الخسف، وصنوف الهوان،وفي حين أنكم أيها المسلمون، ترفلونَ بسوابغ النعم، وتنعمون بلذائذ الحياة وكأنكم في أمنٍ ودعةٍ وسلام .

إنّ دماءً زكية كثيرة قد أُريقت وأُبيحت ، وإن الحُرُمات قد هُتِكتْ وهؤلاء فتياتكم الحسان ليس لهن ما يسترن به جمالهن البارع سوى أكُفِهُنَّ ومعاصِمِهُنَّ، وهن مأخوذات بسيوف العدو المصطبغة بدماء أوليائِهُنَ،والذائدين عنهن.

إن هذه لحرب أو المأساة مخيفة جداً، حتى لقد شاب لهولها وضراوتها صغار الفتيان وإنها تهدف إلى الاحتلال والاذلال فلا مجال للتخاذل، ولا مفر من ركوب أهوالها مهما كَلَّفَ الأمرُ، وكَبُرت التضحيات، إنها حرب مصيرية، ولاعُذْرَ لمن يقعد متفرجاً

(١) الوضر الخبث . (٢) الاوار:حر الشمس، النار واللهب .

عليها، لأنـها قد أطمعت العدوّ فيكم وفي أرضكم، وهذه سيوفه المشرعة ستتخذ من رقابكم وجماجمكم أغماداً لها. ووقف الشاعر بعد هذا مستصرخاً العرب والمسلمين للوقوف والصمود بوجه هذا الطغيان العاتي ومستحثهم على المنازلة والمقاومة ومستنفرهم بصوت الرسول (صلّى الله عليهِ وآلهِ وسَلَّم) لعترته من آل هاشم .

إن هذه الحرب الضروس تنظر إلينا نظرات حادة قوية وتنتظر منا صولة عربية ماحقة ترعب العدو وترهبه وتمزق أوصاله وتبددها وتجعله يندم على فعلته النكراء ويتجرع غصص الخيبة والخذلان أمداً طويلاً . وهذه الأبيات صرخة مدوية من أعماق نفس مكلومة، شعرت بالأسى، وأحست بالفادحة، وقد صورت تصويراً حياً كلَّ ما أريد منها .

لقد بدت في هذه الأبيات ألوان من الفنون البلاغية، من دون مبالغة بصنعة وبديع ومجاز وكناية، كقوله : الحرب شبت نارها، وعيش كنّوار الخميلة، وتنام العين ملء جفونها كناية عن الأمان، وعض الأباهم فهي كناية عن الندم، والمستجن بطيبة كناية عن الرسول الأعظم (صلّى الله عليهِ وآلهِ وسَلَّم)، وغير ذلك كثير.

كما أن التجسيم والتهويل في أكثر ما جاء كان مقصوداً ومتعمداً، ليكون التأثير في النفوس أعمق، والحث على الجهاد والاستنفار أعظم، وهو ما ينبغي أن يكون في مثل هذا الفن أو المعنى .

إن هذه القصيدة مثال عالٍ في الصناعة، ونفثة صادقة ملتهبة من نفثات شاعرعربي ملتزم في وقت عز فيه وجود أمثاله، ومن أجل هذا كله يحق لنا أن ننعتها (القصيدة الجهادية).

أسئلة للمناقشة

١ـ ما خصائص شعر الأبيوردي ؟

٢ـ كان الأبيوردي صادقاً في مشاعره العربية، أيد هذه الفكرة بنص من القصيدة .

٣ـ علل : أـ ميل الشاعر إلى التجسيم والتهويل في قصيدته .

ب‌ـ تطلع الشاعر في أحد أبيات القصيدة إلى غارة عربية موحدة .

جـ ـ في الأبيات إشارات إلى الألوان، استخرجها، وبينّ دلالتها.

القاضي الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي المعروف بالقاضي الفاضل، عربي الأصل من لخم ولد بمدينة عسقلان[١] عام (٥٢٩ هـ).وتلقى على والده قاضي عسقلان طرفاً من علوم اللغة والأدب، ثم قصد مصر وهو في أول صباه للتزود بالعلوم والمعرفة وتعلم فن الكتابة، فنزل بالإسكندرية واتصل بالقاضي ابن حديد الذي أعجب به ودربَّه تدريباً جيداً على التمكن من الفن الكتابي، وكانت الكتب تصل إلى القاهرة بإنشاء القاضي الفاضل فأعجب به أولياء الأمور وطلبوا إليه الانتقال إلى القاهرة ولما أصبحت مصر تحت إمرة صلاح الدين قربه واتخذه كاتباً ووزيراً، وأصبح موقعه عنده عظيماً جداً وقد أبدى القاضي مقدرة كبيرة في مجالي الإدارة والكتابة طوال عهد صلاح الدين وكان يكتب ويسجل أحداث الدولة الخارجية والداخلية، ثم لازم أولاد صلاح الدين بعد وفاته فكان موضع تقدير وحفاوة وإكرام، حتى توفي في القاهرة سنة (٥٩٦هـ).

كان القاضي الفاضل مَرضِيَّ السيرة ِ،حسن الخُلقِ، خيِّراً متديناً وفياً، وكان ذا حُنْكَةٍ سياسية، ومقدرة إدارية، مما جعل صلاح الدين يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولته، في ظروف حربية متصلة بينه وبين الفرنج، ولتحليه بالصفات الكريمة فقد امتدحه الشعراء وأشادوا به كثيراً .

كان الفاضل يجمع بين فني الأدب : الشعر والنثر، وترك آثاراً كثيرة فيهما فله ديوان شعر، وله رسائل كثيرة في فنون متعددة من ديوانية وإخوانية وأدبية، وقد اشتهر كاتباً أكثر من شهرته شاعراً، وكان ذا قدرة عجيبة في صناعة الانشاء وبراعة فائقة في تحرير الرسائل في كلِّ وقت وكلِّ فن ، وتـهيأ للقاضي أن يبتكر طريقة خاصة في الأسلوب الكتابي، مؤسسة في بعض أصولها على الطريقة التي كان يتبعها كبار الكتاب في القرن الرابع الهجري،والتي كانت تحفل بالصناعة اللفظية والمعنوية،فجعل طريقته التي عُرِفَ بها قائمة على أساس الصناعة اللفظية والمعنوية .

(١) عسقلان: بلدة كانت على ساحل فلسطين .

واكثر من السجع والتورية والجناس والاستعارة في كلِّ ما أنشأه من رسائل،حتى أغرت هذه الطريقة الكُتَّاب في عصره، فاقتدوا بها وصرفوا هممهم وطاقاتهم الفنية والأدبية إليها فأصبحت دليلاً على بلاغة الكاتب، ومقياساً لقدرته الفنية والأدبية . وخير ما يصور علوَّ منزلته في الفن الكتابي قول صلاح الدين في ملأ من النَّاس (لاتظنوا ملكْتُ البلادَ بسيوفكم بل بقلم الفاضل).

من آثاره المطبوعة :

١ـ ديوانه .

٢ـ مجموعة من رسائله مبثوثة في (صبح الأعشى) وغيره .

قال القاضي الفاضل في رسالة طويلة كتبها عن صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ببغداد يُبشره بفتح القدس واسترجاعها من أيدي الفرنج [١] :

(للحفظ : ٦ أسطر)

(قَد أَظَفَرَ اللهُ بالعدوِّ الذي تَشَظَّتْ قَنَاتُهُ[١] شُقَقَاً[٢]، وطارت فِرقُهُ[٣] فَرَقاً[٤]،وفُلَّ سَيفُه[٥] فصار عَصا، وصُدعَتْ حَصاتُه[٦] وكان الأكثَر[٧] عدداً وحصًى[٨]، فكلَّتْ حَمَلاتُه[٩] وكانتْ قُدرَةُ اللهِ تَصرفُ فيه العِنان[١٠] بالعيانِ[١١]، عقُوبةً من اللهِ ليس لصاحِبِ يَد بها يدان[١٢]، وعثرت قَدَمُه، وكانتْ الأرضُ لها حليفةً، وغُضَّتْ عينُه[١٣] وكانت عُيُون السّيوف دونَها[١٤] كسيفة[١٥]، ونامَ جَفْنُ[١٦] سَيفِهِ وكانتْ يقَظتُهُ تُريقُ نُطَفَ[١٧] الكرى[١٨] من الجفُونِ[١٩]، وجَدُعَتْ أنوفُ[٢٠] رماحِه وطالما كانت شامخةً بالمنُى[٢١] أو راعِفةً[٢٢] بالمنُون[٢٣].

فَبيُوت الشِّرك مهدومةٌ، ونيُوبُ[٢٤] الكُفرِ مهتُومةٌ وطوائفهُ المحُامية[٢٥] مجتمعةٌ على تسليم البلادِ الحامية، وشُجعانُه[٢٦] المتوافية[٢٧] مُذعنةٌ[٢٨] ببذل المطامع الوافية[٢٩]، لايَرون[٣٠] في ماء الحديد لهم عُصرة[٣١]، ولا في فناء الأفنية[٣٢] لَهُم نُصرة، وقد[٣٣] ضُربَتْ عليهم الذِّلة والمسكنة[٣٤] وبدَّل الله مكان السيئةِ الحسنةَ، ونقل بيت عِبادتهِ، من أيدي أصحابِ المشأمةِ[٣٥] إلى أيدي أصحابِ الميمنةِ[٣٦]).

---

(١) صبح الأعشى :٦/٤٩٣، وفيات الأعيان ٧/١٨١

اللغة

١ـ تشظت: تطايرت قطعاً .

٢ـ القنا: الرماح، أوكل عصا مستوية أومعوجة .

٣ـ شققاً: شظايا.

٤ـ فرقه: طوائفه.

٥ـ فَرَقاً: جزعاً وخوفاً .

٦ـ صُدِّعت: شُقَّت وكسرت.

٧ـ الحصاة: العقل والرزانة.

٨ـ الحصى: جمع حصاة يريد العدد الكثير.

٩ـ كلت: ضعفت وتعبت.

١٠ـ تصرف: تدبر وتوجه .

١١ـ العِنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة (المقود).

١٢ـ العيان: الرؤية والمشاهدة.

١٣ـ غُضَّتْ: كُفَّتْ وخُفضت.

١٤ـ دون: نقيض فوق، وهو تقصير عن الغاية .

١٥ـ كسيفة: مُنكسة مخفوضة.

١٦ـ جفن سيفه: غمدهُ.

١٧ـ تُريق: تصب.

١٨ـ نطف: جمع نطفة، القطرة، والماء الصافي.

١٩ـ الكرى :النعاس والنوم.

٢٠ـ جدعت: قطعت.

٢١ـ شامخة: متكبرة، متعظمة .

٢٢ـ راعفة: سائلة بالدماء .

٢٣ـ المنون: الموت.

٢٤ـ مهتومة: مكسورة.

٢٥ـ المحامية: المدافعة.

٢٦ـ الحامية: آخر من يدافع عنهم في حالة الهزيمة .

٢٧ـ المتوافية : المتتامة.

٢٨ـ مذعنة: منقادة، مقرة.

٢٩ـ المطامع :جمع مطمع :ما يستدعي الطمع، وهو الامل والرجاء .

٣٠ـ الوافية: التامة.

٣١ـ العُصرة: الملجأ والنجاة.

٣٢ـ الفِناء: الساحة في الدار او بجانبها .

٣٣ـ ضُرِبَتْ: أُلزمت وأُحيطت.

٣٤ـ المسكنة: الفقر والضعف.

٣٥ـ المشأمة : الشؤم، الشر.

٣٦ـ الميمنة: البركة .

التعليق النقدي

يتحدث النصّ عن خذلان العدو واندحاره، عما أصاب جموعه الهائلة من تشتت وجبروته من تضعضع وغطرسته من وهن،وعمّا دَبَّ في طوائفه من خور، وفي فرقة من فزع وذعر، بل سرى ذلك كلّه إلى أسلحته وأدوات قتاله، لما نالها من الضربات القاصمة على أيدي ابناء البلاد الشجعان .

إنّ العدوَّ الذي كان بالامس يصول ويجول، ويشمخ بأنفه متجبراً طاغياً، أصبح - بعد أن لقنه الأبطال المحررون دروساً قاسية في الشجاعة والتضحية والفداء -ذليلاً مهاناً يجر ذيول الخزي والعار طالباً النجاة، مقراً بالهزيمة لائذاً بالفرار، مستعداً لتسليم البلاد إلى أهلها .

وهكذا عادت القدس التي دنَّسها العدو إلى أصحابها الأصليين الذين لم يبخلوا - لاعادتها مَكرمة معززة -بكلِّ غالٍ ونفيس .

أحسن الكاتب في تجسيم كلّ ما أراد تصويره من حالات الوهن والضعف والخذلان التي دَبّت في فصائل هذا العدو وضعضعت معنوياته.

انتقى الكاتب لغرضه الألفاظ الملائمة للصنعة التي أرادها كالتشظي والفرق والغل والصدع والكلال، والهدم والهتم والإذعان والتسليم والذل والمسكنة .

كما أحسن اختيار العبارات المناسبة ذوات الدلالات القوية والآثار العميقة في النفوس والمشاعر، حتى ليصعب المفاضلة بين عبارة وأخرى، وهذا واضح في الوصف الدقيق لحالة الهلع التي رانت على العدو المتغطرس، وفقدانه السيطرة على نفسه وضيق الارض على رحابتها، والصراع النفسي الذي انتاب فلوله وقادته فكانوا بين:منهزم ومستسلم وخانع، كقوله :

(فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه المتوافية مذعنة ببذل المطامع الوافية. وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة).

وعمد الكاتب - في تجسيم صوره، وابراز معانيه كذلك إلى التبسيط في القول فأكثر من الترادف في الألفاظ، والتعاقب في المعاني ،فهذا الجزء من الرسالة - كما هو

واضح - يدور حول فكرة واحدة هي انخذال العدو وضعف قواه ولكن الكاتب تفنن في عرضه وشرحه وتبيانه واستعان كذلك في تجسيم صوره وإيضاح معانيه بوسائل بيانية وبديعية فالتزم السجع في عامة النص وقد تفنن به، فمرة يجعل الجملتين مختلفتين في عدد الألفاظ كقوله: (قد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته سفقاً وطارت فِرقهُ فَرَقَاً)، ومرة يجعلهما متقاربتين كقوله (وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفه)كما اعتمد الجناس والإكثار منه كقوله: (فِرقهُ فرَقاً، وحَصاتهُ وحصى، والعِنان والعيان،وجفن والجفون، والمنى والمنون، ومهدومة ومهتومة).

وكذلك استعان بالطباق كقوله (نام ويقظة، والسيئة والحسنة، ومشأمة والميمنة).

كما أكثر من استعمال المجاز كما في قوله :(ونام جفن سيفه، وكانت يقظته وجدعت أنوف رماحه، ونيوب الكفر).

كما ضمن كلامه شيئاً من آي القرآن الكريم وهو قوله: (وقد ضربت عليهم الذّلة والمسكنة) .

أسئلة للمناقشة

١ـ أين تلمح تأثر الكاتب بالقرآن الكريم في النص؟

٢ـ يُعد القاضي الفاضل صاحب مدرسة في الكتابة، ما أهم مميزاتها؟
وهل تتبين في هذا النص بعض ملامحها ؟ عَيِّنْ ذلك.

٣ـ اُذكر أمثلة من الرسالة تحتوي على فنون بديعية، واذكر نوع هذه الفنون .

الأدبُ العربي في الأندلس

مقدمة تأريخية

كانت الأندلس آخر الجناح الغربي من الوطن العربي، حيث تشكل الأرض الممتدة في الجنوب الغربي من أوربا، ويفصل بينها وبين المغرب العربي من جهة البحر مضيق جبل طارق .وتشمل أراضي الأندلس في العصر الحديث كلاً من اسبانيا والبرتغال، كان فتح المغرب مقدمة لفتح بلاد الأندلس .

ففي سنة (٩٢هـ) عبر الجيش العربي المضيق المؤدي إلى الجزيرة الخضراء في الشاطئ الاسباني بقيادة طارق بن زياد، وبتوجيه من القائد العربي موسى بن نصير في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، ونزلوا الجبل المسمَّى (جبل طارق)، ثم ألقى خطبته المشهورة التي منها ((أيهّا الناس أينَ المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام)).

وهكذا فتح العرب الاندلس وحكمها المسلمون ما يقارب ثمانية قرون (٩٢هـ -٨٩٨ هـ) . وصنعوا خلالها للاندلس مجداً أثيلاً وحضارة وارفة،وعلوماً غزيرة.

مقدمة في اتجاهاته وفنونه

كان الشعر أسبق الفنون الأدبية ظهوراً في بيئة الأندلس الجميلة لأنه مظهر الثقافة العربية، ومرآة حياة العربي العقلية والاجتماعية. وهو جزء اصيل من كيانه يشدو به أنَّى حلَّ وأيانَّ ارتحل، فلا غرابة أن يقبل الأندلسيون العرب على نظمه، فتزدهر فنونه وتنتشر بين الناس كلّ ألوانه منذ أن حلّ العرب في الأندلس إلى أن غابت شمسهم عنها . ويقسم المؤرخون عصور الأدب الأندلسي على وفق العصور السياسية :عصر الولاة، فالإمارة، فالخلافة، فملوك الطوائف، فالمرابطين، فالموحدين، وأخيراً عصر بني الأحمر.لكن عصر ملوك الطوائف كان أزهى عصور الشعر فيها، إذ ظهر فيه كثير من فحول الشعراء مثل ابن زيدون وابن خفاجة وابن

عمار والمعتمد بن عباد ، ومما ساعد على نهضة الشعر وازدهاره في الأندلس استقرار السلطة في أيدي العرب المعروفين بموهبة الشعر المتأصلة في نفوسهم وحرصهم الشديد على اللغة العربية وآدابها وجمال طبيعة بلاد الأندلس وفتنتها، فتعلقت بها قلوب الشعراء وملكت مغاني جمالها نفوسهم ومشاعرهم حتى قال شاعرهم :

يـا أهل أندلـسٍ لله دركُــــم	ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جَنَّةُ الخلْدِ إلا في ديارِكــمُ	ولو تَخيَّرتُ هذا كنْتُ أختارُ

مع حياة الدِّعة والاسترخاء والنعومة والثراء وما عرف عن ملوكهم وأُمرائهم من رغبة في الشعر وقرضه، وتقريبهم للشعراء وعقد المجالس لهم.

ومما أسهم في ازدهار الشعر تعاطي الحكام والأمراء والوزراء له نظماً وتذوقاً، فقد كان مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل شاعراً وأديباً، ومثله كثير من الأمراء والخلفاء والملوك كالخليفة عبد الرحمن الناصر وملك إشبيلية المعتمد بن عباد .

ومعظم الوزراء كانوا شعراء أيضاً مثل ابن زيدون، وابن عمار وابن شهيد وابن حزم ولسان الدين بن الخطيب.

وكانت روح المنافسة للمشرق، مع الرِّحلة الدائمة بين المشرق والمغرب من عوامل ازدهار الشعر ونموه أيضاً.

تميز الشعر الأندلسي بميزات واضحة منها، أنه سهل الألفاظ، سلس التركيب واضح المعاني بعيد عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء، وقد ألم ببعض المعاني الطريفة المبتكرة ، مما سلك قسماً من شعرائه في عداد الشعراء المجددين، ولجمال طبيعة الأندلس جال خيال شعرائها ورق وصفهم فكثرت لديهم التشبيهات البديعة والتوليدات العجيبة الغريبة. ومما يلفت النظر كثرة الشواعر في الأندلس، فعددهن كبير بالقياس إلى ما في المشرق العربي، وربما يرجع ذلك إلى ما كانت تتمتع به المرأة من العلم والمعرفة وربما الحرية بنصيب أوفر من نصيب أُختها في المشرق.

ابن زيدون

الشاعر الكاتب الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون يرجع في نسبه إلى بني مخزوم من قريش، وقد وفد أجداده إلى الأندلس أيام الفتح العربي .

ويُعَدُّ من أشهر شعراء قرطبة، عاش في أواخر عصر الخلافة، وأدرك عصر الطوائف إذ توفي في إشبيلية سنة (٤٦٣هـ). تمَيَّزَ بالظرافة ورقة الحديث وسرعة البديهة. وأصدق ما وصف به هو (شاعر الحب والجمال)، وله ديوان مطبوع، أكثره في الغزل بولادة بنت المستكفي، وكانت ذات شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها، وقصائده فيها مشهورة .

وكما برع بالشعر فقد برع بالنثر أيضاً فقد كان ذا ثقافة واسعة كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة، ونال مكانة مرموقة في مجالس قرطبة الأدبية والسياسية .

ومن مؤلفاته :

١ـ رسائل ابن زيدون .

٢ـ ديوان شعر مطبوع ومشهور.

قال في ولادة بنت المستكفي

(للحفظ : ٨ أبيات)

إنّي ذَكرتُكِ بالزّهراءِ مُشتاقاً ... والأُفقُ طلقٌ ومرأى* الأرضِ قد راقا (١)

وللنّسيمِ اعتلالٌ في أصائلهِ ... كأنَّه رقَّ لي فاعْتَلَّ إِشفاقا (٢)

والرُّوضُ عن مائِهِ الفضِّي مبتسمٌ ... كما حَلَلْتِ عن اللبَّاتِ أطواقا (٣)

يوم كأيَّام لذَّات لنا انصَرَمَتْ ... بتنا لها حينَ نامَ الدَّهرُ سُراقا (٤)

نَلْهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ ... جالَ النَّدى فيه حتَّى مالَ أعناقا (٥)

كَأنَّ أعينَه إذ عاينتْ أرقي ... بَكَتْ لِما بي فَجالَ الدَّمعُ رقراقا (٦)

وردٌ تألقَ في ضَاحي مَنابتِهِ ... فازدادَ منه الضّحى في العينِ إشراقا (٧)

كُلٌّ يهيجُ لنا ذكرى تَشوّقنا ... إليك لم يَعدُ عنها الصّدر أنْ ضاقا (٨)

لا سَكَّنَ اللهُ قلباً عنَّ ذكركُم ... فَلَمْ يطِرْ بجناحِ الشَّوقِ خَفَّاقا (٩)

لوشاء حَمْلي نسيمُ الصّبح حين سرى ... وافاكُم بفتى أضناهُ ما لاقى (١٠)

لو كانَ وَفّى المُنى في جَمْعِنا بِكم ... لكانَ من أكَرمِ الأيامِ أخلاقا

كان التَّجارِي بمحضِ الوُدِّ مُذ زمنٍ ... ميدانَ أُنسٍ جَرينا فيه إطلاقا (١١)

فالآنَ أحمد ما كُنّا لعهدِكُم ... سَلَوْتُم وَبَقينا نحنُ عُشَّاقا (١٢)

(*) وتروى (ووجه).

اللغة

١- الزهراء: مدينة بناها عبد الرحمن الناصر بضواحي قرطبة.

طلق: مشرق كأنه باسم.

راق : أعجب.

٢- اعتلال: مرض.

أصائله: جمع أصيل، وهو وقت العشي.

٣- اللّبّات: جمع اللَّبّة، وهي أعلى الصّدر، وموضع القلادة منه.

الأطواق: جمع طوق، وهو ما يحيط بالعنق من الثوب والحلي.

٤- انصرمت: انقطعت وانقضت.

٥- جال: طاف.

النَّدى: المطر والبلل.

٦- رقراق: صفة للدمع لأنه يدور في العين، ويقال : ترقرق أي جاء وذهب.

٧- تألق: لمع.

ضاحي المنابت : الأرض المرتفعة التي غمرتها شمس الضُّحى.

٨- يعدو: يتجاوز.

٩- عنّ: عرض.

١٠- سرى: سار ليلاً.

أضناه: أمرضه.

١١- التَّجاري : التسابق.

محض الودِّ: خالص الحب.

إطلاق: جمع طلق وهو الشوط في السباق.

١٢ - سَلَوْتُم: نسيتم.

التعليق النقدي

يشيع في شعر الأندلسيين المزج بين الطبيعة والغزل، وهم مجددون في هذا بالقياس إلى الشعراء العباسيين في المشرق لأننا تعودنا على مزجهم بين الطبيعة والخمر، وقد يجمع الشعراء الأُندلسيون بين الثلاثة في بعض مقطوعاتهم.

وقد نبعت هذه الميزة عندهم من طبيعة حياتهم المملوءة بالحب فاتصل الحب والغزل بالطبيعة فجعلوها مسرحاً لغزلهم وميداناً لقصص حبهم.

وابن زيدون مولع دائما بالربط بين جمال الطبيعة وجمال المرأة فكلاهما رائع الجمال وإن تباينت السمات فالطبيعة عنده قد ارتبطت بذكريات حبيبتِه ارتباطا وثيقاً وألْهَبت عواطفه وحركت أشجانه وأنطقته بديع الشعر وكلّ ما فيها يذكِّرهُ بحسن محبوبته وجمالها . وقد قيلَ بأنَّ الميزة الأولى هي في القفزة التي كان يقفزها إلى الماضي فيصور لنا بالمقارنة سعادة الحبِّ الآفل وعذاب الهجر المُرّ.

إنَّ ابن زيدون في غزله هذا يعزف على قيثارة الشعر العربي القديم ، لأنه امتداد له نابع من أصول واحدة . وهو يُشْرك الطبيعة معه في حُبِّهِ حتى يجعلها تُشارِكُه اعتلاله وهمومه فالنسيم يعتل وَيَرِقُّ له .

أسئلة للمناقشة

١ـ مزج الشاعر بين الغزل والطبيعة في قصيدته، أوضح ذلك.

٢ـ وردت كلمة (سُرَّاقاً) في أحد الأبيات، فهل وفق الشاعر في استعمالها ولماذا؟

٣ـ كيف توجِّه المعاني التي جاءت في الفقرات الآتية؟

أ ـ والرُّوضُ عن مائهِ الفِضِّي مبتسمٌ.

ب ـ جال النَّدى فيه حتى مال أَعناقا.

جـ ـ لم يطِرْ بجناح الشَّوقِ خفاقا.

الموشحات

تعدّ الموشحات في الأدب فناً شعرياً نشأ في بلاد الاندلس خلال القرن الثالث الهجري لإرضاء حاجة الشعب، ويتميز بتعدد القوافي، وبخروجه على بحور الشعر المعروفة في بعض الأحيان وتنويعها في الموشح الواحد، وبتقسيمه إلى أجزاء لا نجدها في ألوان النظم الأخرى، مع استعماله اللهجة العامية أو الأعجمية في آخر أجزائه. ويُعدُّ الموشح من فضائل العرب في الأندلس، سبقوا فيه أهل المشرق، واقتدى المشارقة بهم في نظمه.

وهو ليس ظاهرة مستقلة عن الشعر العربي، لأن ناظِميه هم شعراء عرب كانوا يَقرِضُون الشعر وينظمون الموشحات في آنٍ واحد.

وقد اختلف المؤرخون في تسمية أولِ وشَّاح أندلسي، فقال بعضهم إنَّهُ محمد بن حمود القبري، وقال آخرون : إنَّه ابن عبد ربَّه الأندلسي . أما أجزاء الموشح فهي أجزاء يكون مجموعها الموشح الكامل وهي :

(المطلع ، القفل ، الدور ، السمط ، الغصن ، البيت ، الخرجة) ، فالمطلع : هو القفل الأول من الموشح ، والقفل : هو الجزء المتكرر في الموشح، والمتفق مع المطلع في القافية والوزن وعدد الأجزاء ، والدور: هو ما يأتي بعد المطلع في الموشح، ولم يتكرر متفقا في الوزن وعدد الأجزاء في كلِّ الأدوار، والسمط : هو كلّ شطر من أشطر الدور ، والغصن : هو الشطر الواحد من أشطر المطلع أو القفل ، والبيت : ويتكون من الدور والقفل الذي يليه مجتمعين ، والخرجة : هي القفل الأخير من الموشح .

والخرجة : هي الجزء الوحيد في الموشح التي لا تلتزم باللغة الفصيحة ولا بالإعراب. وتُعدّ أوزان الموشحات أكبر حركة للتجديد في أوزان الشعر العربي، وثورة ضد القوافي الرَّتيبة التي كانت الأَشعار العربية تلتزم بها دائماً.

أما أغراض الموشحات فهي متنوعة كتنوع أغراض الشعر العربي، فقد نظمها الوشاحون في الغزل والمدح والرثاء والهجاء والزهد، وإنْ كان الغزل أبرز أغراض الموشحات، لصلتها الوثيقة بفن الغناء الذي عمَّ الأندلس، وتلحينها في مجالس اللهو والطرب، فتغنى بها المغنون في مجالسهم، وارتفعتْ بها أصوات الجواري.

ومن أبرز الوشاحين في الأندلس ابن سهل الإشبيلي ويحيى بن بقي وابن قزمان ولسان الدين بن الخطيب [1].

أسئلة للمناقشة

١- لم يكن الموشح ظاهرة منفصلة عن تطور الشعر العربي. وضح هذا القول.

٢- من أول من نظم الموشح ؟

٣- ما الخرجة وبماذا تختلف عن سائر أجزاء الموشحة ؟

٤- تعد الموشحات أكبر حركة تجديد في الشعر العربي. ناقش هذا القول .

٥- الغزل ووصف الطبيعة أبرز أغراض شعر الأندلس ، ولاسيما الموشحات .وضح ذلك.

٦- سمِّ ثلاثة من الوشاحين الاندلسيين .

---

(١) يستعان بموشحة ابن الخطيب لتوضيح اجزاء الموشح عملياً.

لسان الدين بن الخطيب

هو محمد بن عبدالله بن سعيد المعروف بلسان الدين بن الخطيب، يرجع في نسبه إلى عرب اليمن، إذ رحل بعض أجداده إلى دمشق ثم استقر بهم المقام في الأندلس. ولد ونشأ في غرناطة، وعاش بين سنتي ٧١٣ ـ ٧٧٦ هـ ، يُعَدُّ من أبرز رجال دولة بني الأحمر في السياسة والعلم والأدب ، وإن كان الأدب ألصق به من غيره، إذ كان شاعراً وخطيباً ووشاحاً وكاتباً ومؤرخاً وزادت مؤلفاته على الستين كتاباً ومما طبع منها:

(الإحاطة في أخبار غرناطة) و (الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المِئة الثامنة) و (رقم الحلل في نظم الدول) و (جيش التوشيح).

اشتهر بذي الوزارتين، القلم والسيف، وعُرِفَ بعمق تفكيره وأصالته وبحبه لأمته، والدفاع عنها بالفكر والرأي.

ومن موشحاته المشهورة قوله من موشحة طويلة يعارض فيها موشحة ابن سهل الإشبيلي ويمزج فيها المدح بالغزل ووصف الطبيعة .

الموشح

(للحفظ: ٧ أبيات)

جادَكَ الغيثُ إذا الغَيْثُ هَمَى	يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ (١)
لـمَ يكُنْ وصَلُكَ إلّا حُلُماً	في الكَرى أو خُلسَةَ المُخْتلِسِ (٢)

***

إذ يَقودُ الدَّهرُ أَشتاتَ المُنى	نَنْقُلُ الخَطْوَ على ما تَرسُمُ (٣)
زُمَراً بينَ فُرادى وثُنا	مِثلما يَدعُو الحجيجَ الموسمُ (٤)
والحَيا قد جَلَّلَ الرَّوضَ سنا	فَثغُورُ الزَّهرِ فيه تَبْسِمُ (٥)

***

وروَى النُّعمانُ عن ماءِ السَّما ... كيفَ يَروِي مالِكٌ عن أنسِ (٦)

فكساهُ الحُسْنُ ثوباً مُعْلَما ... يَزدهي منه بأبْهى ملبسِ (٧)

***

في ليالٍ كَتَمْت سِرَّ الهوى ... بالدُّجى لولا شُموسُ الغُررِ (٨)

مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهَوى ... مستقيمَ السَّيرِ سعدَ الأثَرِ (٩)

وطَرٌ ما فيه مِنْ عيبٍ سوى ... أنَّه مَرَّ كَلمحِ البَصَرِ (١٠)

***

حِينَ لذَّ النومُ شيئاً أو كما ... هَجَمَ الصُّبْحُ هُجومَ الحرسِ

غارتِ الشُّهبُ بنا أو ربُمَّا ... أثَّرتْ فينا عيونُ النَّرجِسِ (١١)

***

أيُّ شيءٍ لامرئٍ قَد خَلصا ... فيكونُ الرّوضُ قد مُكِّن فيه

تنهبُ الأزهارُ فيه الفُرَصا ... أمِنَتْ من مَكرِه ما تَتَقيهِ (١٢)

فإذا الماءُ تناجى والحَصى ... وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه (١٣)

***

تُبصرُ الوردَ غيوراً بَرِما ... يَكتسي من غيظِهِ ما يَكتسي (١٤)

وترى الآسَ لبيباً فَهِما ... يَسرِقُ السَّمعَ بأذني فَرسِ (١٥)

***

يا أُهيلَ الحيِّ من وادي الغَضَا ... وبقلبي مسكنٌ أنتمْ بهِ (١٦)

ضاقَ عن وجدِي بكم رحْبُ الفَضَا ... لا أُبالي شَرقَه من غربِهِ (١٧)

فأعيدُوا عهدَ أُنسٍ قد مَضى ... تَعتقوا عانيكُم من كَربِهِ (١٨)

***

واتقوا اللهَ وأحيوا مغرما ... يتَلاشى نَفَساً في نَفَسِ (١٩)

حَبَسَ القلبَ عليكم كَرَما ... أفَترضَونَ عَفاءَ الحُبُسِ (٢٠)

***

اللغة

١ـ الغيث: المطر.

هَمَى : سالَ.

٢ـ الكرى : النعاس أو النوم.

الخلسة : الفرصة من الخلس وهو السلب.

٣ـ أشتات : أنواع.

٤ـ زُمر : جمع زمرة، وهي الجماعة.

ثُنا : اثنين اثنين.

٥ـ الحيا : الندى أو المطر.

سنا : حسن وجمال.

٦ـ النعمان : الأزهار المعروفة بشقائق النعمان.

ماء السماء : المطر.

مالك : الإمام المحدث مالك بن أنس.

ومعنى البيت ان رواية مالك عن أبيه رواية صحيحة كرواية النعمان بن المنذر عن جده ماء السما، وفيها تورية بشقائق النعمان، والمطر ماء السماء .

٧ـ مُعْلَماً : مصبوغاً ومرسوماً .

يزدهي : يستخف .

أبهى : أجمل .

٨- الدُّجى : الظلام.

الغُرَر : جمع الغرة، وغرة الشمس ما بدا من ضوئها أو الصبح.والغرة بياض في الجبين وأراد الوجوه البيض .

٩- هوى : سقط.

١٠-وطر : حاجة.

١١-غارت : اختفت.

الشهب : واحدها الشهاب، وهو الكوكب الساطع.

١٢- مَكْرُهُ : احتياله وخديعته.

تتقيه : تحذره.

١٣- خليل : صديق.

١٤- برم : ضجر.

١٥- لبيب : عاقل.

١٦- أهيل : تصغير أهل.

١٧-وجدي : حبي.

١٨- تعتِقوا : تحرروا.

كربه : غمَّه وحزنه.

١٩- مغرم : مولع ومحب.

٢٠-عفاء : هلاك.

الحُبُس : جمع حبيس وهو السجين.

التعليق النقدي

يعارض ابن الخطيب في هذا الموشح موشحاً لابن سهل الإشبيلي :

هل درى ظَبيُ الحِمى أنْ قَد حَمى   قلبَ صبٍّ حلَّه عن مَكَنسِ

والمعارضة في الموشحات : أن ينظم الوشّاح موشحاً على غرار موشح سابق متفقاً معه بالغرض والوزن والقافية، ولما كان موشح الإشبيلي في المدح والغزل ووصف الطبيعة جاء موشح ابن الخطيب ملتزماً بذلك أيضاً .

ويتميز هذا الموشح برقة الألفاظ وسهولة المعاني ووضوحها وهو مملوء بالتشبيهات الجميلة والصور الزاهية .

أجزاء الموشح :

والقفل الأول في هذا الموشح هو البيتان الأول والثاني:

جادكَ الغيثُ.

لم يكن وصلك.

ويسمى هذا القفل المطلع . وقد ذكر ابن الخطيب قافيته ووزنه في القفل الثاني والثالث ... الخ.

أما الدور فيه فهو:

إذ يقود...

زمراً...

والحيا...

وقد تكرر بوزنه، وعدد أجزائه بعد القفل الثاني والثالث ... الخ.

والخرجةُ في هذا الموشح هي آخر قفل. وهي غير مذكورة لأن الموشح غير كامل فقد اقتصرنا على أربعة أبيات من أصل عشرة أبيات.والسمط فيه : إذ يقود الدهر أشتات المنى، أو : ننقل الخطو على ما ترسم، وكل شطر من أشطر الأدوار الأخرى والغصن فيه: جادك الغيث إذا الغيث همى .

أو : يا زمان الوصل بالأندلس.

وكلّ شطر من أشطر الأقفال الأخرى.

أما البيت فهو مكون من المقطع الثاني (الدور) إذ يقود...

والمقطع الثالث (القفل) وروى النعمان ... الخ.

أسئلة للمناقشة

١ ـ تتميز موشحة لسان الدين بالدقة والسهولة والربط بين الطبيعة والغزل.أوضح ذلك.

٢ ـ وضّح ما يأتي:

أ ـ الموشح وأجزاءه .

ب ـ أغراض الموشحات.

جـ ـ المعارضة في الموشحات.

٣ ـ قال لسان الدين:

((وروى النُعمان عن ماءِ السَّما   كيفَ يروي مالكٌ عن أنسِ))

اُذكر نبذة موجزة عن كل عَلَم جاءَ في البيت.

٤ ـ اختر مقطعاً أعجبك وانثره في مقالة أدبية .

النثر مقدمة :

إن النثر صنو الشعر يتقدم ويتطور معه. كان الشعر الأندلسي مكملاً لنهضة الشعر في المشرق وكذلك النثر الأندلسي كان امتداداً للنثر العربي في المشرق. وبدأ تأثير الكُتَّاب الأندلسيين واضحاً بأسلوب عبد الحميد الكاتب الأموي، وبأسلوب الجاحظ في العصر العباسي، وبأسلوب آخرين في العصور المتأخرة، وامتد تأثرهم إلى ما يُسمى بالنثر الفني أيضا، فجاروا ابن المعتز وابن سلام في الطبقات والصولي في كتاب الأوراق. ويمكن أن نقسم النثر الأندلسي على أربعة ألوان هي الخطابة والرسائل والمناظرات والمقامة.

الخطابة :

لم يصل إلينا من خطب الأندلسيين إلا القليل على الرغم من دواعيها التي كانت تقتضيها حياتهم، ويمكن أن نُقَسِّم الخطابة الأندلسية على قسمين، فهي في عصورها الأولى تتميز بالسهولة والوضوح والإيجاز مع البُعد عن التكلف والزخرفة اللفظية، وخير من يمثلها منذر بن سعيد البلوطي الذي برز اسمه في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فنال إعجابه بعد أن استجاب له البيان وأعانه المنطق والتوفيق.

أما في عصورها المتأخرة فالغالب عليها التكلف والإطالة والإطناب والتزام الزخرفة اللفظية، وربما كان الخطباء يحذون في ذلك حذو المشارقة إذْ سيطر اتجاه القاضي الفاضل.

الرسائل :

أكثر ما يتمثل النثر الاندلسي في الرسائل الفنية التي دبَّجها الكُتّاب ومعظمهم كانوا من الشعراء أيضاً، فمنحوا النثر مواهبهم الشعرية وارتقوا به إلى أساليب فنية جديدة حتى كادوا أن يجعلوهُ شعراً منثوراً لا ينقصهُ إلا الوزن والقافية ليكون شعراً وقد ولجَ به الكُتّاب كل الموضوعات فَعُرِفَت الرسائل الديوانية التي تسمّى السلطانيات أيضاً.

والرسائل الإخوانية التي تدور بين الإخوان والأصدقاء عرف بها ابن برد، والشاعر ابن زيدون الذي كتب رسالته الجدية في عتاب الحاكم ابن جهور واستعطافه، ورسالته الهزلية التي كتبها على لسان ولادة يسخر فيها من منافسه ابن عبدوس، وهي شبيهة برسالة الجاحظ(التربيع والتدوير) في السخرية من مهجوه أحمد بن عبد الوهاب. ولعل من أبرز كُتّاب الرسائل في الأندلس عامة هو ابن شُهيَد الذي كتب رسائل كثيرة في موضوعات وفنون متنوعة.

المناظرات :

المناظرات فن نثري يحاول فيه الكاتب إظهار قدرته البيانية وبراعته الأسلوبية في الموضوع الذي يكتب فيه معتمداً أسلوب الحوار بين الأشخاص أو بين غيرالعقلاء من المخلوقات، وتسمى المناظرات الخيالية، كالحوار بين السيف والقلم أو بين المدن الأندلسية، وقد أبدع الأندلسيون في المناظرات التي كان يُجريها الكُتَّاب بين الزهور والرياحين والورود وبقية النباتات ولإظهار حبهم للأندلس، وتعلقهم بأوطانهم كتبوا مناظرات لبيان فضائل الأندلس وأهلها، من ذلك مناظرة ابن حزم في فضائل علماء الأندلس .

المقامات:

وهي لون من الحكايات الفنية القصيرة وضع تقاليدها أدباء المشرق مثل بديع الزمان والحريري ونسج على طريقتها الأندلسيون، تجسيداً لوحدة الفكر والفن العربي، فكتب أبو طاهر السرقسطي الذي وافاه الأجل سنة (٥٩٨هـ) (المقامات السرقسطية).

وكتب لسان الدين ابن الخطيب مقامات عديدة منها: (مقامة السياسة) كما كتب ابن شرف القيرواني مقامات عديدة عارض فيها مقامات بديع الزمان .

ابن شُهَيدالأَندلسي

أبو عامر أحمد بن عبدالملك بن شهيد الأندلسي، شاعر استوطن قرطبة كبرى مدن الأندلس، وظَلَّ فيها إلى مطلع القرن الخامس الهجري حيث وافاه الأجل سنة (٤٢٦هـ). وهو من عائلة عريقة في قول الشعر، تحدر الشعر في أربعة أجيال متتالية منها حتى وصل إليه. لم تشغله السياسة على تقلبها في عصره وقربه من ذوي السلطان بقدر ما شغلته ملذات قرطبة وملاهيها، وعاش أكثر حياته في صحبة الوزراء ومساجلة الأدباء، ونال منزلة عالية وشهرة واسعة بشعره ونثره فقد كان شاعراً مبدعاً محسناً أنشأ العديد من الرسائل الأدبية وكانت رسالة (التوابع والزوابع) أشهر رسائله الأدبية التي منها:

شيطان امرئ القيس

(للدرس فقط)

تذاكرْتُ يوماً مع زُهير بن نُمير[١] أخبارَ الخُطباءِ والشعراءِ، وماكان يألفهم من التوابعِ والزَّوابعِ، وقلْتُ : هل حيلةٌ في لقاءِ من اتفقَ منهم ؟ قالَ: حتَّى استأذنَ شيخَنا، وطار عني ثم انصرفَ كلمحٍ بالبصر، وقد أذِنَ له، فقالَ : حُلَّ على متنِ الجوادِ[٢]، فصِرنا عليه، وسارَ بنا كالطائرِ يَجتابُ[٣] الجوَّ فالجوَّ، ويقطع الدَّوَّ[٤] فالدَّوَّ، حتى التمحتُ أَرضاً لا كأرضنا وشارفتُ[٥] جّواً لا كَجّونا، متفرعَ الشَجَرِ عَطِرَ الزَّهرِ.

فقالَ لي: حللت أرضَ الجنِ أبا عامر، فبمن تريدُ أن تبدأ؟ قُلتُ: الخطباءُ أولى بالتقديم، لكِنِّي إلى الشعراءِ أشوق، قالَ : فمن تُريدُ منهم؟ قُلتُ: صاحبَ امرئ القيسِ. فأمالَ العِنان [٦] إلى وادٍ من الأوديةِ ذي دوحٍ [٧] تتكسرُ أشجارُهُ وتترنمُ اطيارُهُ، فصاحَ: يا عُتَيْبةَ بن نَوفل، بسقطِ اللوى[٨] فحومل[٩]، ويوم دارةِ جُلجُل، إلا ما عرضْت علينا وجهك، وأنشدتنا من شِعْرِك، وسمعتَ من الأنسيِّ، وعرفتنا كيف إجازتُك له.فظهرَ لنا فارسٌ على فرسٍ شَقْراءَ كأنها تَلتَهبُ، فقالَ: حيَّاك اللهُ يا زهير،وحيّا صاحبَكَ، أهذا فتاهم ؟ قلْت:هو هذا، وأيُّ جَمرةٍ يا عُتَيْبةُ، فقالَ لي : أنشِد، فقلتُ : السيدُ أولى بالإنشادِ، فتطامحَ[١٠] طرفُه واهتزَ عِطفهُ[١١]، وقبضَ عِنانَ الشَّقراء، وضربَها بالسَّوطِ، فسَمت تُحضِرُ طولاً عنا. وكر فاستقبلَنا بالصَّعدةِ، هازاً لها، ثم ركَزَها وجعل يُنشد.

(سما لك [١٢] شوقٌ بعدَ ما كان أقصرا) حتى أكملَها ثم قال لي : أنشِد، فهمَمْتُ بالحَيْصةِ[١٣]، ثم اشتَّدت قُوى نفسي وأنشدتُ:

شَجته[١٤] مغانٍ [١٥] من سُليمى وأدُورُ [١٦] حتى انتهيت فيها إلى قولي:

ومن قُبةٍ لا يدركُ الطرفُ رأسَها ... تَزِلُّ بها ريحُ الصَّبا فتحدَّرُ
تكلفتها والليل قد جاشَ بَحره ... وقَدْ جَعَلتْ أمواجه تتكسرُ
ومن تحت حِضني أبيضٌ[١٧] ذو سَفاسِف [١٨] ... وفي الكفِّ من عَسّالةالخطِّ [١٩] أ سمرُ
هما صاحِبايَ من لَدُنْ كُنتُ يافعاً ... مُقيلا ن [٢٠]من جَد [٢١] الفتى حين أعثر

فلما انتهيت تأملَّني عُتَيَبةُ ثم قال : اذهب فقَد أجزتُك، وغاب عنا .

اللغة

١ـ زهير بن نمير: اسم الجني الذي يصحبه ابن شهيد.

٢ـ متن الجواد: ظهر الحصان.

٣ـ يجتاب: يقطع.

٤ـ الدو: الفلاة .

٥ـ شارفت: أشرف عليه.

٦ـ العنان: مقود الحصان.

٧ـ دوح: واحدها دوحة، وهي الشجرة العظيمة .

٨ـ بسقط اللوى : الباء للقسم، وسقط : ما تساقط من الرمل.

واللوى : منقطع الرمل حين يرق .

٩ـ حَومَلْ : اسم مكان وهذه الثلاثة ذكرها امرؤ القيس في مطلع معلقته.

١٠ـ تطامح طرفه: ارتفع بصره.

١١ـ عطْفُه : جانبه.

١٢ـ سَمالك : مطلع قصيدة مشهورة لامرئ القيس.

١٣ـ الحيصة : الانـهزام والـهرب.

١٤ـ شَجَتْهُ : أحزنته .

١٥ـ مغانٍ : منازل.

١٦ـ أدوُرُ : جمع دار.

١٧ـ والأبيض : السيف.

١٨ـ سفاسف : واحدها سفَسَفة او سفسوفة، وهي جوهر السيف ووشيه.

١٩ـ عسالة الخط : الرمح وكذا أسمر.

٢٠ـ مُقيلان : من الفعل أقال عثرته، أي أزال عنه ما يسبب عثرته .

٢١ـ جَد : حظ .

التعليق النقدي

هذه الرسالة (التوابع والزوابع) مما يمكن أن يندرج تحت باب القصص الخيالي العربي القديم ،فابن شهيد يحكي فيها كيف التقى بشياطين الشعراء القدامى بأسلوب فكاهي بديع ممتع، وهو يتعرف بزهير بن نمير الجني وتتوثق العلاقة بينهما ويحرص على استدعائه كلما احتاج إليه ليصحبه في صورة خيالية جديدة يروي وقائعها بأسلوب قصصي .

وقد سمَّى هذه الرسالة (بالتوابع والزوابع)، يريد توابع الكُتّاب، وهم أصحابهم من الجن، والزوابع شياطين الشعراء الذين يعينونهم على نظم الشعر (كما يتخيلون).
وقد حاول كثير من الكتاب أن يربطوا بين هذه الرسالة و (رسالة الغفران) لابي العلاء المعري، لما بينهما من أوجه الشبه، ويذهب معظمهم إلى تأثر المعري بابن شهيد لسبقه في تأليف رسالته وبعضهم يذهب إلى تاثر ابن شهيد بالمعري.

والحقيقة أنها رسالة مبتكرة لم يقلد ابن شهيد فيها أحداً، وربما لم يقلده أحد لأن أصل فكرتها مستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ففيها حديث عن معراج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى السماء وعن الجنة والنار.

كما ان الرسالة اعتمدت الفكرة الخيالية السائدة قبل الإسلام وبعده، وهي وجود شياطين الشعراء يعينونهم على قول الشعر.

وبعد : فالرسالة تحتوي على رحلات شائقة جميلة قام بها المؤلف، واشترك خلالها في مناقشات أدبية ومعارضات شعرية ممتعة كما عرض فيها لشذرات من النقد الأدبي، تنم عن نظرات جريئة وأفكار نقدية صائبة تتفق مع المناهج النقدية الحديثة.

أسئلة للمناقشة

١ـ أينَ تدرج هذه الرسالة؟

٢ـ ما العلاقة بين هذه الرسالة و (رسالة الغفران)؟

٣ـ ما الأصل الذي يمكن ان نُرجِع إليه فكرة هذه الرسالة؟

٤ـ ماذا احتوت الرسالة ؟

٥ـ ماذا تعد هذه الرسالة وأمثالها في الأدب العربي عامة وأدب الأندلس خاصة؟

للدول كما للناس أعمار، تبدأ قوية متمكنة يقوم على أمرها رجال ذوو بصر وبصيرة، كالدولة العباسية، ويمر الزمن فتبدو عليها عوامل الضعف والوهن والشيخوخة، فيطمع فيها الطامعون والطامحون إلى السلطة فيقطعون أوصالها إلى دويلات.

فظهر التتر قوة جديدة في مشرق العالم الإسلامي في أوائل القرن السابع الهجري فهاجموا المدن الواقعة نحو الشرق الأوسط، مثل بخارى وسمرقند، واجتاحوا دولة خوارزم، ففتح سقوطها الطريق سهلاً يسيراً نحو العراق.

ووصلوا كرمانشاه القريبة من حدود العراق في سنة ٦١٨هـ، وأغاروا على أربيل والموصل وداقوق والسواد وخانقين وبعقوبة في سنوات مختلفة قبل هجومهم على بغداد، وعادوا، ولم يروا رد فعل حازم على هجماتهم ، بل إن الخليفة أي خليفة كان يشكر الله الذي كفاه شرهم، وهم في هجماتهم تلك كانوا يقتلون الناس والحيوانات، ويخربون ما يعترض طريقهم من مدن وعمارة وزرع ليبثوا الرعب في النفوس والقلوب.

حتى إن ابن الأثير يقول : «ولقد بقيت عدّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة كارهاً لذكرها، فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذلك؟»

لقد حمل عدد من المؤرخين المعاصرين الخلفاء العباسيين المتأخرين مسؤولية سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) وليس المستعصم وحده، وأفاضت الدراسات التي تناولت هذه الحقبة بذكر أسباب سقوط الدولة العباسية، وأخذت عليها تخبط سياستها وقصر نظر حكامها وفسادهم، وإهمالهم الجيش وإسقاطهم رواتب الجند من الديوان حتى اضطر بعضهم إلى سؤال الناس على إبواب الجوامع.كما كانت الفتن الطائفية تنخر جسم الدولة، وانحياز الجند إلى طائفة من الشعب من دون أخرى.

يضاف إلى ذلك إهمال شؤون الري وخراب مشاريعه، وتوالي الفيضانات وسنوات الجدب والقحط وغزوات الجراد في سني الدولة العباسية الأخيرة،

كل ذلك يجري والخليفة المستعصم سادر في لهوه وعبثه كأنه لا يدري بما يدور حوله. حتى قال ابن الطَقْطَقى في كتابه الفخري: «وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني، لايكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة... وكان ندماؤه وحاشيته منهمكين معه في النعم واللذات».

وحذر الغيارى من الناس الخليفة من زحف المغول ومن العواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه والبلاد، إن لم يعدَّ جيشاً قوياً ويضرب المفسدين ويصلح الأوضاع الداخلية.

لقد أدرك الخلافة العباسية الضعف، ولم يبق لها ما يساعدها على الوقوف في وجه الغزو المغولي العنيف الضاري، حتّى إذا تقدم جيش المغول نحو بغداد اجتاحها بسهولة ويسر. زحف هولاكو نحو العراق بنحو مائتي ألف محارب، فدخل بغداد سنة (٦٥٦هـ) وقتل الخليفة وكثيراً من رجال حاشيته وخلقاً كثيراً، وشوّه معالم الحضارة والمدنية المعمورة منذ قرون عديدة.

كان سقوط الخلافة العباسية ودمار بغداد حدثاً كبيراً وخطباً فادحاً أذهل الناس وأثار عواطفهم، فأنشأ الشعراء القصائد الباكية المؤثرة في بكائها ورثاء مجدها وعزها وناسها ومعالمها.ولما استقر التتر في بغداد خضعت لهم مدن العراق كافة خوفاً ورهبة وقاسى الناس في ظل حكمهم الويلات والمصائب.

وهلك هولاكو وتولى ابنه (أباقا) فطمأن الناس على أنفسهم وأموالهم بعض الأطمئنان، ومات فاعقبه (تكودار خان) الذي أسلم وتسمّى باسم (أحمد) ويستمر الحكم فيهم، حتى مَلَكَ (غازان) الذي أسلم وأسلم معه مئة ألف من جنده، هذا في العراق.

ثم إن جيش هولاكو دهم مدينة (حلب) وخربها وقتل أهلها وهدم قلعتها في سنة (٦٥٧هـ)، وفَرَّ حاكم دمشق فاستسلمت المدينة.أما في مصر فقد وهن حكم الأيوبيين في أواخر أيامهم، وتولت الحكم فيها (شجرة الدر) عقب وفاة زوجها الملك الصالح الأيوبي وقتِلها ابنهُ (توران شاه)، ثم أنها تزوجت مملوكها (عز الدين أيبك) وتنازلت له عن الحكم في سنة (٦٤٨هـ) فكان أول حاكم في سلسة المماليك، وتولى الحكم بعده ابنه (المنصور نور الدين)، وفي سنة (٦٥٥هـ)، وفي عهده هاجم التتر بغداد واسقطوا الخلافة العباسية، وهموا بالزحف على الشام ومصر، فأحس المماليك بالخطر فخلعوا المنصور نور الدين، وملكوا عليهم أتابكه (مربيه) قطز سنة (٦٥٧هـ).

راسل هولاكو قطز أمير مصر، يطلب إليه التسليم والطاعة، فقتل قطز رسل هولاكو، وكان مستعداً للقتال، وخرج للقاء التتر، فالتقاهم في موضعين بفلسطين، في (عين جالوت) وفي (بيسان) فدحرهم وشتت جيوشهم.

وبعد عودته من القتال، دبر عليه الأمير (بيبرس) قائده مؤامرة قتله فيها، سنة (٦٥٨هـ) وتسلم الحكم بعده. واستمر حكم المماليك في مصر حتى سنة (٩٢٣هـ) سنة استيلاء العثمانيين على مصر .

الشعر والنثر

حين تكون حياة الناس تميل الى الرخاء سعيدة يكون هناك شعر، وأُناس يقدّرون الكلمة الجميلة فلم ينضب الشعر بعد سقوط الدولة العباسية على الرغم من تولي حكام أعاجم حكم البلاد الإسلامية، لكنه لم يعد متدفقاً قوياً كما كان من قبل، فالحكام في العراق وبلاد الشام ومصر أجانب من أصول غير عربية بل إن جلهم لا يفقهون العربية، فتقوضت مجالس الأدب، كما كان أكثر الناس غارقين في الجهل، همهم تيسير قوتهم وسبل معيشتهم.

لقد رعى عدد من حكام الشام وماردين ومماليك مصر من المستعربين الشعر والشعراء وأصبح الشعر شائعاً بين مختلف طبقات المجتمع يتخذونه وسيلة للتسلية والتفكه وتزجية الوقت في المجالس حيناً، وللجد والعبرة في حين آخر. وقد نظم الشعراء في مختلف الأغراض كالمدح والفخر والحماسة والغزل والوصف والزهد والتصوف والهجاء والمجون والخمريات.

فمدح الشعراء أمراء عصرهم وأصدقاءَهم وفضلاء الناس، وهجوا من هجوا وانتشر المديح النبوي وشاع في عصر هدد فيه الصليبيون ديار المسلمين ومقدساتهم في بلاد الشام ومصر، يستغيثون به ويطلبون عونه ويحثون الناس على الاقتداء به وبسيرته لرد المعتدين حتى ألفت في مدائحه دواوين كثيرة، واشتهر في هذا العصر البوصيري صاحب البردة القصيدة المشهورة التي مطلعها:

أمِنْ تَذكرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ	مزجتَ دمعاً جرى مِنْ مقلةٍ بدمِ

التي عارضها كثير من الشعراء، وترسموا خطاها، كابن معتوق الموسوي كما سنرى، وأحمد شوقي وغيرهم. ورثى الشعراء أصدقاءهم وأحباءهم ومشاهير الناس والعلماء، وشاع في هذه الفترة رثاء المدن التي دمرت في

الحروب والفتن كرثاء بغداد وحلب. وظلت الفنون الشعرية الأخرى على حالها .

واهتم الشعراء بالإكثار من المحسنات البديعية واللفظية، حتى غدت همّ الشعراء ووكدهم يطلبونها ويثقلون بها نظمهم، واقتبسوا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وضمنوا شعرهم منه لفظاً ومعنى، وضمنوا شعرهم أبياتاً من قصائد مشهورة لسابقيهم من الشعراء، وعارضوا قصائد مشهورة، وشطّروا وخمّسوا قصائد أخرى وأغرقوا في الصنعة اللفظية وقصدوا إليها قصداً على حساب الفكرة والشاعرية.

وشاعت الفنون الشعرية المعرَّبة : كالدوبيت والموشح والزجل والمواليا والكان وكان والقوما والبند، وكان اكثرها معروفاً من قبل . واهتم بهذه الفنون شعراء مجيدون، مثل صفي الدين الحلي، الذي الف فيها كتاباً أسّماه (العاطل الحالي والمرخص الغالي) كما نظم ابن سناء الملك موشحات كثيرة ضمَّنَ كتابه (دار الطراز) كثيراً منها.

أما النثر فقد نَحا منحى الشعر في الإغراق بالمحسنات اللفظية والبديعية، التي تثقل النص على حساب الفكرة والمضمون، فأصبحت الرسائل نسيجاً ثقيلاً من السجع وفنون البلاغة المتكلفة وذلك لتبلد الأذواق ونبو الاسماع.

هذه لمحة مختصرة نلقي شيئاً من ضوء على ماطرأ على الأدب وفنونه بعد العصر العباسي نأمل أن تكون قد بينت بعضاً من ملامح تلك الفنون الأدبية .

صفي الدين الحلي

هو عبد العزيز بن سرايا بن نصر الحِلّي الطائي، ولد في الحلة سنة (٦٧٧هـ) لأسرة على شيء من اليسار وسعة الحال ألحقته بالكُتّاب، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ الأشعار، وتدرب على ركوب الخيل، وقد نظم الشعر في سن مبكرة.

في بداية حياته قتل خاله في حوادث جرت في مدينته الحلة، خاض صفي الدين غمارها فاظهر بطولة وفروسية، وقد امتدت فاضطر إلى الرحيل إلى بغداد، ووصل في رحلته إلى (ماردين) ومدح أميرها الملك نجم الدين غازي بن أرتق، فاكرمه إكراماً بالغاً، ونظم فيه صفي الدين ديواناً، كانت حروف قوافيه على حروف المعجم، فهو يضم تسعاً وعشرين قصيدة كل قصيدة على حرف روي، وفي كل قصيدة تسعة وعشرون بيتاً، أسّماه (درر النحور في مدائح الملك المنصور)، ومدحه بقصائد أخرى، كما مدح ابنه بعده، وطاف في بلاد الشام حتى استقر في مصر زمناً، وأخيراً توفي في بغداد في سنة (٧٥٠هـ) حين انتشر الطاعون، فأتى عليه عن ثلاث وسبعين سنة من العمر .

جمع صفي الدين الحلي ديوانه في حياته، وقد نظم في أغراض الشعر العربي المعروفة كالمدح والفخر والحماسة والرثاء والخمريات والغزل والشكوى والهجاء والألغاز، وقد أخذ على نفسه ألا يمدح أحداً ولا يهجو أحداً، بل نظم في مدح الرسول الكريم وآل بيته الأطهار، وفي الفخر بآبائه وأعطى صحابة الرسول الكريم حقهم من حبه ومديحه بلا تعصب، يقول : (للدرس)

ولائي لآلِ المصطفى عقدُ مذهبي	وقلبي مِنْ حبّ الصحابة مُفْعَمُ
ومـــا أنـــا ممّنْ يستجيــزُ بحِبّهــم	مسبَّـــةَ أقـــوامٍ عليهم تقدموا
ولكننـــي أُعطـــي الفريقينِ حَقَّهم	ورَبّـي بحـــالِ الأفضليةِ أعلــم

آثاره:

خلّف صفي الدين الحلي بعده آثاراً أدبية كثيرة منها:

١ـ ديوانه.

٢ـ الكافية البديعية، وهي قصيدة تقع في (١٤٥بيتاً) ضمنها (١٥١نوعاً) من فنون البديع.

٣ـ نتائج الألمعية في شرح الكافية البديعية.

٤ـ الدر النفيس في أجناس التجنيس.

٥ـ العاطل الحالي والمرخص الغالي.

٦ـ المثالث والمثاني في المعالي والمعاني.

٧ـ لوعة الشاكي ودمعة الباكي.

٨ـ الرسالة التوأمية.

٩ـ رسالة الدار في محاورات الفار.

١٠ـ الخدمة الجلية، رسالة في وصف الصيد بالبندق، وغيرها.

قال صفي الدين الحلي يفخر بقومه :

(للحفظ: ٨ أبيات)

سلي الـرمـاحَ العوالي عـــن معالينـا | واستشهدي البيضَ هلْ خابَ الَّرجا فينـا (١)
لمـا سعـينا فـمـا رَقّـتْ عزائـمُنــا | عـمّـا نـرومُ ولا خـابَتْ مـسـاعيـنـا (٢)
يـا يــومَ وقــعةِ زوراءِ العـراقِ وَقَدْ | دِنّـــا الأعــادي كـمـا كانوا يَدينونـا (٣)
بضُمَّرٍ مــاربـطناهــا مَسـوَّمــةٍ | إلّا لِنـغـزو بـهـا مَـنْ بـاتَ يغزونـا (٤)
وَفتـيةٍ إنْ نَقُـلْ أَصغـوا مسـامعَهـم | لقـولـنـا أو دَعَـونـاهـم أجـابـونـا
قَــومٌ إذا استخـصِموا كـانوا فراعنـةً | يــومــاً وَإنْ حُـكِّمـوا كـانوا موازينا
إذا ادّعَــوا جـاءتِ الـدنيـا مُصدِّقةً | وَإنْ دَعـوا قـالـتِ الأيـامُ آمـيـنـا
إنَّ الـزرازيـرَ لمّـا قـامَ قـائمُهـا | تـوهّـمتْ أنـهّا صـارتْ شـواهـيـنـا (٥)
ظنّتْ تـأنّي البـزاةِ الشُّـهبِ عَنْ جَزَعٍ | وَمــادَرَتْ أنَّـه قـدْ كـانَ تـهـويـنـا (٦)
ذُلّـوا لأسيـافِنا طـولَ الـزمـانِ فمُذْ | تحـكّـمـوا أظـهـروا أحـقـادَهـم فينا
إنّــا لَـقومٌ أبـتْ أخـلاقُنا شـرفـاً | أنْ نـبتـدي بـالأذى مَـنْ لـيسَ يـؤذينا
بيـضٌ صنـائعُنا سـودٌ وقـائعُنا | خُـضرٌ مـرابـعُنا حمـرٌ مواضينا (٧)
لا يـظهرُ العَجْزُ منّا دونَ نيلِ منىً | وَلَـو رأيـنـا المـنـايـا فـي أمـانـيـا

اللغة :

١ ـ البيض : السيوف.

الرجا: أي الرجاء، الأمل.

استشهدْ: اطلب شهادة .

٢ ـ رقّتْ : وهنت وضعفت.

نروم : نبتغي ونريد.

خابتْ : فشلت.

٣ ـ دان : خضع، وجازى، وكافأ .

٤ ـ ضمّر : جمع ضامر، وهي الرشيقة الأصيلة من الخيل.

مسومة : عليها وسم، علامة على كرم أصلها.

٥ ـ الزرازير: أكبر من العصفور .

٦ ـ البزاة: جمع بازٍ، وهو ضرب من الطيور الكاسرة،

الشواهين : مفردها شاهين وهو جنس من الصقر طويل الجناحين .

تهوينا : استهانة واستصغاراً.

٧ ـ صنائعنا : أفضالنا وأيادينا.

التعليق النقدي

هذه القصيدة واحدة من روائع شعر الحماسة وغرره على مدى العصور الأدبية المختلفة، يخاطب بها صفي الدين الحلي على عادة الشعراء العرب امرأة يتوهمها في فكره، ويدعوها لأن تسأل الرماح العالية، وهي أدرى يوم المعركة بشجاعتهم، وتطلب شهادة السيوف وهي أعلم، في يوم اللقاء تسألها هل خيبوا الأمل أو تخاذلوا، والاستفهام هنا يراد به النفي، يريد أنهم لم يخيبوا الرجاء فيهم، فقد سعوا بعزائم لم تهن عن تحقيق أهدافها ولم تضعف في أخذ الثأر من أعدائهم وواتريهم. ويذكر وقعة الزوراء حين ثار وصحبه ثأراً لمقتل خاله، فردوا عليهم ضربتهم يوم تقدموا بجياد ضامرة أصيلة، وقابلوا غزوة أعدائهم بمثلها، قاد المعركة وأسهم فيها فتية يستجيبون للنداء،لا يترددون ولا يسألون عن الهدف ولا عن السبب، تماماً كما فعل فرسان الجاهلية من قبل، فهم :

لا يسألون أخاهم حينَ يطلبهم	في النائبات على ماكانَ برهانا

فهم قوم يقيمون العدل كالميزان لا خيانة فيه، وهم جبابرة فراعنة عتاة إن خوصموا، تستجيب لندائهم الدنيا فتصدقهم في ما يقولون ويدعون .

ينتقل بعد ذلك الى خصومهم، فيصورهم بُغاثاً ضعيفة لا تستطيع لقاءهم وهم النسور القوية، لقد ذُلَّ أولئك الخصوم لسيوفهم زمناً طويلاً حتى إذا أمكنتهم الفرصة اظهروا حقدهم وعداوتهم وتلك سمة الجبان الغادر، وأخيراً يفخر بقومه، فهم ذو أخلاق وأدب جمّ، لا يبتدؤون الآخرين بالأذى والعدوان، أعمالهم واضحة بيضاء، وحروبهم نار وظلام وقتام على أعدائهم، ومرابعهم خصبة خضرُ وسيوفهم حمرُ

من دماء أعدائهم، كما أنهم ذو همم عالية وإقدام لا يقف العجز في سبيل تحقيق أهدافهم، ولو كان الموت معترضاً سبيل تحقيقها .

هذا مقطع من واحدة من غرر روائع أدبنا العربي، كانت صادقة العبارة بينة الفكرة فالأفكار تتسلسل دونما تعقيد ولا تكلف، فلا تكاد ترى ما فيها من فنون البلاغة وإن وردت فقد وردت عفواً دون تصنع ولا قصد إليها، جاءت المقابلة والمطابقة بين بيض وسود، وخضر وحمر، وكنّى عن صغر خصومه وضعفهم وهوانهم بأنهم زرازير وعن قوة قومه وقوتهم وشموخهم وسموهم كنّى بالشواهين .

والجناس لا يكاد يبين كما في قوله : ادّعوا، و دَعَوا.

وتلك ميزة أكسبت هذه القصيدة الخلود فضلاً عن سمو موضوعها وسلاسة الفاظها ووضوح معانيها ونبل مقاصدها.

أسئلة للمناقشة

١ـ ما مناسبة القصيدة، وفيمَ قيلت؟

٢ـ ماذا تعني كلمة (الزوراء) ؟

٣ـ استخرج بيتين من القصيدة تراها في الفخر.

٤ـ بِمَ استحقت هذه القصيدة البقاء؟

٥ـ ما صلة الألوان ورموزها بالعلم العراقي؟

ابن مَعتوق الموسويّ

هو شهاب الدين بن أحمد الموسوي الحويزي المعروف بابن معتوق، من السادة أمراء الحويزة، ولد في الحويزة، موطن آبائه، في سنة (١٠٢٥هـ) وبها ترعرع وتعلم، وتثقف بما كان سائداً في عصره من معارف. كعلوم العربية وآدابها شعرها ونثرها ونحوها وصرفها، وعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ، وبدا ذلك جلياً في شعره. وقد ولد فقيراً ضعيف الحال، فرعاه أمراء الحويزة وأكرموه وعائلته ولذا كان جلُّ شعره في مدحهم وبيان أفضالهم عليه.

خلف ابن معتوق الموسوي ديوان شعر جمعه من بعده ابنه (معتوق) وهومطبوع، ورتبه في ثلاثة فصول، الأول في المدائح، والثاني في المراثي، والثالث في موضوعات متفرقة من مقاطيع ودوبيت وبنود ومواليا، وهو في شعره تقليدي، يحتاج قارئه إلى العودة الى المعجم لمعرفة كثير من ألفاظه غير المألوفة في الاستعمال، كما أنه يميل إلى الإغراب والصناعة اللفظية وفنون البديع والبيان .

توفي ابن معتوق في شهر شوال من سنة (١٠٨٧هـ)، إثر إصابته بالفالج ، ومن قصيدة له في مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) وآل بيته الأطهار قال:

(للحفظ: ٨ أبيات)

شكراً لآلاء ربـــي حيثُ ألهمنـــي	ولاءَ هُمْ وسقاني كـــأسَ حُبِّهِـمِ (١)
لقد تشرَّفْتُ فيهم مُحْتِداً وكفـــى	فخراً بأنـي فرعٌ مِنْ أُصولِهـم (٢)
أصبحتُ أعزى إليهم بالنِجارِ على	أنَّ اعتقاديَ أنّـي مِنْ عبيدِهـمِ (٣)
ياسيدي يارسولَ الله خُذْ بيـدي	فَقَدْ تحمّلْتُ عِبْئاً فيه لم أقُمِّ (٤)

أستغفرُ اللهَ ممّا قد جنيتُ على نفسي ويا خَجَلي منهُ ويانَدمي
إنْ لمْ تكُنْ لي شفيعاً في المعادِ فمَنْ يُجيرني مِنْ عذابِ اللهِ والنِقَمِ (٥)
مولايَ دعوةَ محتاجٍ لنصرتِكمْ مِمّا يسوءُ وما يُفضي إلى التّهمِ (٦)
تبلى عظامي وفيها مِنْ مودتكم هوىً مقيمٌ وَشوقٌ غيرُ منصرمِ (٧)
مامَرَّ ذكرُكم إلا وألزمني نثرَ الدموعِ ونظمَ المدحِ في كَلِمي
عليكمُ صلواتُ اللهِ ما سَكِرت أرواحُ أهلِ التُقى في راحِ ذكرِهم

اللغة :

١ ـ آلاء: نعم.

ألهمني: علمني.

الولاء: الحُبّ والمتابعة.

٢ ـ مُحتِداً: أصلاً.

٣ ـ أُعزى: أُنسَبُ.

النِجار: الأصل.

٤ ـ خذ بيدي : أَعنّي وساعدني

العبء: الحِمْل.

٥ـ المعاد: يوم القيامة.

يجيرني : يدفع عني الجور و الظلم.

٦ ـ يُفضي : يُوصل.

٧ ـ منصرم : مُنْقطع.

التعليق النقدي

هذه أبيات انتزعناها من قصيدة لابن معتوق الموسوي قالها في مدح الرسول الكريم (ص) وآل بيته الأطهار (ع)، عارض فيها قصيدة البوصيري المشهورة بـ (البردة) التي مطلعها:

أمِنْ تذكرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ	مزجتَ دمعاً جرى مِنْ مقلةٍ بدَمِ

والمعارضة : أنْ ينظم الشاعر قصيدته على وزن وقافية قصيدة لشاعر آخر، وهكذا فعل ابن معتوق الموسوي.

فهو في هذه الأبيات يشكر الله على نعمه البالغة، إذ ألهمه حبّ رسول الله وآله، وسقاه محبتهم وشرفه بها، وهو وان كان ينتمي للدوحة العلوية ويرتبط برسول الله بنسب كبير وفخر، فهو منهم صليبة مع أنه يرى أنه من عبيدهم .

ينتقل بعد ذلك ليطلب العون من رسول الله، فهو يحمل حملاً لا يستطيع النهوض به من آثامٍ ومعاصٍ يستغفر الله منها، فيالخَجلِهِ منه إذ يلاقيه! ويا لَندمِهِ على مااقترف! فمن شفيعه يومذاك إن لم يكن رسول الله شفيعه؟ فهو محتاج لنصرته مما يسوؤه، وهو المحب للرسول وآله حباً لا انقطاع له، ولو فنيت عظامه وبليت. وهو يرتبط بهم بالولاء، ينثر الدمع في حبهم، وينظم الشعر فيهم ولأجلهم، فسلام عليهم ماسكر محبوهم بمودتهم .

أراد الشاعر في هذه القصيدة معارضة البردة للبوصيري ومحاكاتها في مدح رسول الله (ص)وأنّى له ذلك، فما بلغ شأوه، ولا قرب من مضماره، فالصنعة واضحة بيّنة، وحتى الأفكار فهي تكاد تكون مأخوذة من قصيدة البوصيري.

وتلك سمة لشعر هذا العصر، فلا جديد فيه، بل هو اجترار لأفكار السابقين من الشعراء.

أسئلة للمناقشة

١ـ ما موضوع هذه القصيدة ؟

٢ـ كيف كانت لغة الشاعر وأفكاره؟

٣ـ هناك قصيدة لشاعر آخر سبقه على وزنها وقافيتها، وقلدها شعراء كثر، من ذلك الشاعر، وما اسم قصيدته ؟

٤ـ عَرِّفِ المعارضة ؟ واذكر مثالاً لها مرَّ بك من قبل.

المحتويات

تم بعون الله تعالى